

حفظ الوقت

مجلة جامعة تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

السنة السادسة. العدد الثلاثون: ربيع الأول/ربيع الآخر 1433هـ الموافق لـ مارس/أفريل 2012م

السعر: 150 دج رقم الإيداع القانوني: 3623. 2006 ISSN: 1112.6825

حوار مع...

الشيخ عبيد بن عبد الله الجابري

حفظه الله تعالى

معالم هادية لقراءة كتب التفسير

عز الدين رمضاني

المسلمات الشرعية زمن الفتن

عباس ولد عمر

حق الله على العباد

أ.د. عبد الرحمن محي الدين

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الحمدَ للهِ، نحمدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنْفُسِنا ومِنْ سَيِّئاتِ أعْمالِنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له.

وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [سُورَةُ آل عِمرَان].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [سُورَةُ الأَحزَاب].

أمَّا بَعْدُ:

فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وأحسنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُهَا، وكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وَكُلَّ ضَلالَةٍ في النَّارِ.



مجلة جامعة
تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

دار الفضيلة

المدير
توفيق عمروني

رئيس التحرير
عز الدين رمضاني

أعضاء التحرير:
عمر الحاج مسعود
عثمان عيسي
نجيب جلواح
د/رضا بوشامة

التصميم والإخراج الفني:
دار الفضيلة للنشر والتوزيع

الطباعة:
مطبعة الديوان

عنوان المجلة:
دار الفضيلة للنشر والتوزيع
حي باحة (03)، رقم (28) الليدو.
المحمدية. الجزائر

الهاتف والفاكس:
(021) 51 94 63
(النقال) (0559) 06 99 92

التوزيع (جوال):
(0661) 62 53 08

البريد الإلكتروني:
darelfadhila@hotmail.com

الموقع على الشبكة العنكبوتية:
www.rayatalislah.com



مدير المجلة

إنَّ من سعادة المرء أن يجعل الصِّدقَ شعارَه، فيُعامل ربَّه عزَّ وجلَّ بصدق، ويتعامل مع النَّاس بصدق، ويصدُقُ مع نفسه، وصدقُه مع نفسه أن يعرِّفَها قدرَها، فكما أنَّه لا يليقُ بالعَبد أن يهينَ نفسَه ويضعَها دون قدْرِها، كذلك لا يحسُنُ به ألبتَّةَ أن يرفعَها فوق منزلتها، ولا يجد في ذلكَ غضاضَةً ولا حرجًا؛ فإنَّ من متعلَّقات الإيمان بالقضاء والقَدر أن ترضَى بما قسَمَ الله لك، ولا تدَّعي ما ليس فيك ولا لك؛ لأنَّ «المتشبِّع بمَا لم يُعط كلابس ثَوْبَيْ زُور». كما قال النَّبيُّ ﷺ؛ لذا كان منَ الحكم البليغة والكلمات المأثورة. وليست حديثًا.، قولهم: «ما هلك امْرُؤٌ عرفَ قدرَه»، أو «رحمَ الله امرءًا عرفَ قدرَه فوقفَ عندَه»، فوقوفُ العبد عند قدره وعدم تعدِّيه لطوره، دليلٌ على وفرة دينه وسلامة عقله، فهلاكُ العَبد إذا أراد أن يحملَ النَّاسَ على أنْ يرفَعوه إلى منزلة هُو دونَها، أو أن يجعَلوه في مرتبة هُو لا يبلغُها، وإنَّ مَن سَلك بنفسه هذَا المسلَكَ فقد نادى عليها بقلَّة الإخلاص ونُدرة الصِّدق، وعدمِ التَّوفيق للعَمل بالعلم، وابتَعد عن سبيل النَّجاة.

فجديرٌ بطالب العلم المبتَدي ألَّا يخوض فيما لا يحسنُه إلَّا العالم المنتَهي، وبالحَدَث النَّاشئ ألَّا يتطاول على كبير السِّنِّ المتمرِّس، وعلى اللاَّحق ألَّا يُنكر فضلَ السَّابق، ولا يركب المرءُ بحر الأماني، ولا يتسربل لباس التَّعجُّل وقلَّة التَّأنِّي، ويمشي بتمهُّل ورويَّة، فإنَّ التَّدرُّج سنَّة كونيَّة وشرعيَّة، لا يمكنُ الانفلات منها.

إنَّ مَن عرفَ قدرَه وعرفَ لذي الفَضل فضلَه؛ فقد قرعَ بابَ التَّوفيق، ووضَع نفسَه على جادَّة الطَّريق، واتَّسَقَت آراؤه، وتوافَقَت أقوالُه، وتلاءمت أحوالُه؛ ولم تخنْه شَواهدُ الامتحان، وفَرح بصحبتِه كلُّ إنسان، وصَدق مَن قال: «مَن عرَفَ قَدرَه استبانَ أمرَه»؛ وأمَّا مَن لم يعرف قدرَ نفسه فلن يعرفَ قَدْر غيره، لأنَّه كما قيل: «مَن جَهل قَدْر نفسِه، فهُو بقَدْر النَّاس أَجْهَل»، وهو بذلك يكون قد وضَع نفسَه في الوَرطات، ولم يجد طمأنينةً ولا راحَةَ بال، وكثُر منه التَّناقُض والاضطراب، ولم يستَقرَّ له رأيٌ ولا حال، وغلبَ عليه الاستعجَال وكثرةُ الانتقال، لا تصفُو له صحبَة، ولا تدومُ معَه عشرة، تنكَّب جادَّةَ الطَّريق، فلمْ يُحالفْه التَّوفيق، فإنْ لم يتَداركه الله برحمتِه انتَهى به الأمرُ إلى وحشة وهوان، وباء بالخسر والحِرمان، والله المستَعان.

في هذا العدد

العدد السابق





حوار مع
الشيخ عبيد بن عبد الله الجابري
حفظه الله تعالى
سير الأعلام

قواعد النشر في المجلة

- أن تكون الموضوعات مطابقة لخطة المجلة، وموافقة لمنهجها.
- أن يكون المقال متسمًا بالأصالة والاعتدال.
- أن يحرَّر المقال بأسلوب يحقق الغرض، ولغة بعيدة عن التكلف والتعقيد.
- الدقة في التوثيق والتخريج مع الاختصار.
- أن تكون الكتابة على الكمبيوتر، أو بخطٍّ واضح مقروء؛ وعلى وجه واحد من الورقة.
- ألا يزيد المقال على خمس صفحات.
- أن يذكر صاحب المقال اسمه الكامل وعنوانه ورقم هاتفه، ودرجته العلمية إن وجدت.
- المقالات أو البحوث التي لا تنشر لا تردُّ لأصحابها.

حفظ الوقت

التحرير

إنَّ وقت الإنسان هو رأس ماله، بل هو حياتُه الَّتي يعيشها في هذه العاجلة ويُحاسَب عليها في الآخرة، قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «ابن آدم! إنَّما أنت أيَّام كلَّما ذهب يومٌ ذهب بعضُك» [«حلية الأولياء» (2/148)].

وأيَّام الدُّنيا خزائنُ ممتلئةٌ بأعمال العباد، خيرها وشرِّها، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝﴾ [الزلزلة]، وقد أقسم الله بالعصر ـ وهو زمن سعي الفائزين والخاسرين ـ في كتابه فقال: ﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝﴾ [العصر]، وهذا دليلٌ على عظمه وشرفه، ووجوب اغتنامه.

فحريٌّ بالنَّاصح لنفسه أن يكون همُّه في مدَّة لَبثه في هذه الفانية التَّزوُّدَ للباقية، وأن يجعل وقته ـ ليلَه ونهارَه ـ سيرًا حثيثًا إلى دار القرار، وأن يغتنم أوقات فراغه لهذا الخطب العظيم.

إنَّ الفراغ ـ وضدّه الشُّغل ـ نعمةٌ لا يدرك حقيقتها ولا يعرف ثمرتها إلاَّ النَّزرُ القليل الموفَّقون، والكثيرُ مغبون فيها، أمرُه فُرُط ووقتُه هدْر وشبابُه ضائع، يعيش سَبَهْلَلاً، لا في عمل الدُّنيا ولا في سعي الآخرة، قال النَّبيُّ ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ» [رواه البخاري (6412)].

والعاقلُ اللَّبيبُ هو الَّذي يَشُحُّ بوقته أعظمَ من شُحِّه بماله، ويحرص أشدَّ الحرص على أن لا يمضي شيءٌ منه إلاَّ في طلب علم نافع أو أداء عبادة أو سعي إلى مصلحة دينيَّة أو دنيويَّة، أو اجتهاد في إيصال الخير إلى النَّاس، قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «أدركت أقوامًا كان أحدُهم أشحَّ على عُمُره منه على دراهمه ودنانيره» [«الزُّهد» لابن المبارك (8)].

وإذا تأمَّلت حال أهل عصرنا في هذا الباب؛ وقفت على العجب العُجاب: يُلعب بالأعمار ويُكفَر بالنِّعم، تُهْدر أوقات في المقاهي والملاعب والطُّرقات، وتُضيَّع ساعات في عَفَن الهواتف وزُبالة الشَّبكات والفضائيَّات، يُستجاب لكلِّ أفَّاك أثيم، ويُنقاد لكلِّ خدَّاع لئيم، فآل الأمر إلى إهمال الفرائض وارتكاب الجرائم والوقوع في حَمْأة الفواحش والغرَق في مستنقع الرَّذائل، وابتلي شبابُنا بالعجز والكسل والخمول والبطالة والقلق وسوء الخلق، ونجم نوعٌ من الشَّباب غريب، شكلُه عجيب وحديثُه مُريب، بارزة عليه علامات التَّخنُّث والميوعة، وظاهرة عليه أشْراط الخيبة والرُّعونة، لا همَّ له إلاَّ الموضات السَّاقطة من اللِّباس وتسريح الشَّعر والثَّرثرة والتَّجوال والسَّمر باللَّيل والنَّوم بالنَّهار.

تعطَّلت الطَّاقات، وشَلَّت الأيدي عن العمل النَّافع، وضعُفت العقول عن التَّفكير المثْمِر، وفترت عن المعالي العزائم، وأحاطت بنا من كلِّ جانب الهزائم، وأصيبت الأمَّة في كبدها، ونجح أعداؤها في خُطَطهم الماكرة لتضليل الشَّباب والشّوابِّ، وصرفهم عن دينهم الحقِّ، ومسخ شخصيَّتهم الإسلاميَّة الشَّريفة وطمس أصالتهم القويَّة العريقة.

وفي منثور الحكم: «مِنَ الفراغ تكون الصَّبْوَة»، أي: الميل إلى اللَّهو والباطل، فالفراغ دون علم وتقوى ومحاسبة ومراقبة، ومع غياب التَّعليم النَّافع والتَّأديب النَّاجع، سبب للخيبة والغفلة والشَّقاء، وظهورِ الانحراف العقدي والخلقي والانغماس في الرَّذائل، والتَّقليد الأعمى للحضارة الغربيَّة الزَّائفة، والانخداع بشعاراتها البرَّاقة والوقوع في حبائلها المدمِّرة.

إنَّ تضييع الوقت في اللَّهو والباطل هو موتُ الأمَّة وقبرٌ لأفرادها ووأدٌ لطاقاتهم وعقوقٌ لنعمة الفراغ، قال بعض البلغاء: «مَن أَمْضى يومَه في غَير حقٍّ قضاهُ، أو فَرض أدَّاه، أو مَجد أثَّله، أو حَمد حَصَّله، أو خير أسَّسه، أو علم اقْتَبسه، فقد عقَّ يومَه وظلم نفْسَه» [«أدب الدُّنيا والدِّين» للماوردي (57)].

وأيُّ خير في حياة من يعيش لشهوته وبطنه، وينطلق ينشر الشَّرَّ ويفسد في الأرض، يتسكَّع في الطُّرقات ويتتبَّع العورات ويتعاطى المخدِّرات، متَّكئًا على الجُدُر يراقب كلَّ شاردة وواردة، جالسًا على الأَرْصفة ينظر إلى كلِّ غادية ورائحة، لا يعرف لا حقَّ ربِّه ولا حُرمةَ إخوانه، روى التِّرمذي (2320) من حديث أبي بَكْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رجلاً قال: يَا رَسُولَ الله! أَيُّ النَّاس خَيْرٌ؟ قَالَ: مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ، قَالَ: فَأَيُّ النَّاس شَرٌّ؟ قَالَ: مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ»، وفي الحكمة: «من دام كسلُه خاب أملُه»، و«من لزم الرُّقادَ عَدم المرادَ».

إنَّ أمَّتنا بحاجة إلى جيل من الشَّباب قويِّ العزيمة، شديد الشَّكيمة، عالي الهمَّة، حريص على العلم النَّافع والعمل الصَّالح وعلى كلِّ ما ينفع، بعيد عن الباطل واللَّعب واللَّغو وعن كلِّ ما يضرُّ، يعرف قيمةَ الوقت ويدرك خطورةَ الفراغ، يعتزُّ بعقيدته وأصالته، ويعمل لصلاح دينه وبلده وأمَّته، ويوقنُ بأنَّ المجد والعزَّة والبناء أمورٌ لا تُنال إلاَّ بالتَّوكُّل على الله، والمحافظة على الأخلاق والقيم، والعمل والجدِّ والاجتهاد، وقمع الهوى وترك الرَّاحة والصَّبر على المجاهدة، والنَّأي عن السَّفْساف والفواحش.

جيل يُواجِهُ ـ بعقل وعلم وفقه وحلم ـ التَّحدِّيات الَّتي تُحْدق بأمَّته، ويَرُدُّ الضَّربات القاتلةَ المصوَّبةَ إلى نحور أبنائها، ويسعى في جمع كلمتها ولَمِّ شملها ورأب صَدْعها وتضميد جراحها، ويرفع عنها ـ بإذن الله تعالى ـ الغبن الَّذي أصابها في السَّنوات العجاف، حتَّى يعودَ إليها عزُّها الأثيل، ويرجعَ إليها مجدُها الأصيل، وما ذلك على الله بعزيز.

قال العلامَّة محمَّد البشير الإبراهيمي رحمه الله: «إنَّ الحياة حسناءُ، مهرُها الأعمال العامرة، فلا تسوقوا لها الأقوال الجوفاء، وإنَّ دينكم ينهاكم أن تأخذوا الأمور بالضَّعف والهُوَيْنَا، فخذوها بالقوَّة والغلاب؛ وإنَّ أربع خلال ارتضاها الله لعباده وأمرهم بها: الصَّبر والمصابرة والمرابطة والتَّقوى، ﴿ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٢٠٠﴾ [سورة آل عمران]، و﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣٩﴾ [سورة آل عمران]» [«الآثار» (413/3)].

ولا يفوتنا أن ننبِّه إخوانَنا القرَّاء على أنَّ شهر رمضان المبارك الَّذي قد هبَّت نَسمتُه وفاحت أريجَتُه، فرصةٌ ثمينةٌ للدُّربة على اغتنام الأوقات والمحافظة على الطَّاعات والمسارعة إلى الخيرات، فجدير بنا أن نغتنم أيَّامَه ولياليَه في التَّوبة النَّصوح والجدِّ والاجتهاد في العبادة والخير والاستعداد للآخرة.

قال ابن رجب رحمه الله: «السَّعيد من اغتنم مواسم الشُّهور والأيَّام والسَّاعات، وتقرَّب فيها إلى مولاه بما فيها من وظائف الطَّاعات، فعسى أن تصيبه نفحةٌ من تلك النَّفحات، فيسعدَ بها سعادةً يأمَن بعدها من النَّار وما فيها من اللَّفحات» [«لطائف المعارف» (11)].

وَلا يَذْهَبَنَّ العُمْرُ مِنْكَ سَبَهْلَلا
وَلا تُغْبَنَنَّ بالنِّعْمتينَ بَل اجْهَدِ
فَمَنْ هَجَر اللذَّاتِ نَالَ المُنَى وَمَنْ
أَكَبَّ على اللذَّاتِ عَضَّ عَلَى اليَدِ
فَفِي قَمْعِ أَهْوَاءِ النُّفُوسِ اعْتِزَازُهَا
وفي نَيْلِها ما تشتهي ذُلُّ سَرْمَدِ

نسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى أن يصلح حال شبابنا وأن يهيِّئَ لهم من أمرهم رشدًا، إنَّه خير مأمول وأكرم مسؤول.



معالم هادية لقراءة كتب التفسير

عز الدين رمضاني
رئيس التحرير



إنَّ أهمَّ العلوم الَّتي ينبغي على المكلَّف معرفتها والإحاطة بها العلم الَّذي يقرِّبه من الله تعالى، ويبصِّره بأحكام ربِّ العالمين.

ومن أجلِّ هذه العلوم وأشرفها علم التَّفسير، فهو أوَّل العلوم الشَّرعيَّة لارتباطه بكتاب الله تعالى.

قال محمَّد الخضر حسين: «التَّفسير رأس العلوم الشَّرعيَّة ورئيسها»[1]، ولأنَّه الأصل في فهم القرآن وتدبُّره، وعليه يتوقَّف استنباط الأحكام، ومعرفة النَّاسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، وبه يعرف الحلال والحرام، ومنه تستخرج قواعد الشَّرع وأصوله.

يقول الرَّاغب الأصفهاني: «أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان تفسير القرآن وتأويله، وذلك أنَّ الصِّناعات الحقيقيَّة إنَّما تشرف بأحد ثلاثة أشياء، إمَّا بشرف موضوعاتها... وإمَّا بشرف صورها... وإمَّا بشرف أغراضها وكمالها... فإذا ثبت ذلك فصناعة التَّفسير قد حصل لها الشَّرف من الجهات الثَّلاث، وهو أنَّ موضوع المفسّر كلام الله تعالى: الَّذي هو ينبوع كلِّ حكمة، ومعدن كلِّ فضيلة، وصورة فعله: إظهار خفيَّات ما أودعه منزِّله من أسراره ليدبَّروا آياته وليتذكَّر أولوا الألباب، وغرضه: التَّمسُّك بالعروة الوثقى الَّتي لا انفصام لها، والوصول إلى السَّعادة الحقيقيَّة الَّتي لا فناء لها، ولهذا عَظُمَ محلُّه بقوله: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: 270]، قيل: هو تفسير القرآن»[2].

(1) «السَّعادة العظمى» (ص4).

وذكر السُّيوطي في «الإتقان» (512/2) نقلاً عن الأصفهاني نفسه أنَّ التَّفسير حاز الشَّرف من جهة شدَّة الحاجة إليه معلِّلاً ذلك بقوله: «وأمَّا من جهة شدَّة الحاجة؛ فلأنَّ كلَّ كمال ديني أو دنيوي، عاجلي أو آجلي مفتقر إلى العلوم الشَّرعيَّة والمعارف الدِّينيَّة، وهي متوقِّفة على العلم بكتاب الله تعالى».

ويقول الواحدي: «إنَّ أمَّ العلوم الشَّرعيَّة ومجمع الأحكام الدِّينيَّة: كتاب الله المودع نصوص الأحكام، وبيان الحلال والحرام والمواعظ النَّافعة، والعبر الشَّافية والحجج البالغة، والعلم به أشرف العلوم وأعزها وأجلّها وأميزها؛ لأنَّ شرف العلوم بشرف المعلوم»[3].

ومن خلال هذه المقدِّمة في بيان أهميَّة علم التَّفسير ينبغي لطالب العلم أن يستشرف ـ بما عنده من جهد وهمَّة ـ لمطالعة كتب التَّفسير، والنَّهم من ذخائرها، والوقوف على فوائدها، وجمع ما تيسَّر من مُلَح التَّفسير ولطائف التَّأويل الَّتي جادت بها قرائح العلماء في هذا الفنِّ الجامع، فإنَّ ذلك مفيد له غاية الإفادة في بناء معارفه الشَّرعيَّة، وصقل موهبته ـ إن كان ذا موهبة ـ بهذا

(2) «تفسير الرَّاغب الأصفهاني» (36/1).
(3) «الوسيط في تفسير القرآن» (47/1).

النَّوع من العلوم والمعارف.

غـير أنَّه يجب أن ينتبه لجملة محاذير قبل أن يلج هذا النَّوع من العلـوم، حتَّى يأمن الزَّلل ويتجنَّب الانحـراف الَّذي يؤدِّي به إلى سلوك مسلك أهل الأهواء، وتبنِّي منهج أهل البدع.

وإليـك - يا طالـب علم التَّفسـير - هذه التَّنبيهـات، وهي بين نصائح وإفادات وتحذيرات، علَّها تكون لك بمثابة المعْلَم الهادي والمصباح المنير في مطالعة كتب التَّفسير وكيفية الاستفادة منها.

□ **أولا:** كتب التَّفسـير كثيرة جدًّا ومتنوِّعـة، والإحاطة بها عدًّا فضـلاً عن مطالعتها متعذِّرة، ولو قيل للعارف بعلم التَّفسير وتاريخه: إلى كم يصل عَدَدُهَا فإنَّه لا يكون مبالغًا إذا قال: تزيد عـن الألف، وهـي بهذا العـدد الهائل ووحدة موضـوعها لا يخلو كتاب منها من فوائد ودرر، وما يوجد في تفسير قد لا يوجد في آخر.

□ **ثانيًا:** كتب التفسير جمعت الغثَّ والسَّمين والحقَّ والباطل والخطأ والصَّـواب والمقبول والمرفوض، ولهذا قالوا: «ثلاثة كتب ليس لها أصـول: التَّفسـير والملاحـم والمغـازي»[4]، وإن كان من وجوه تفسـير هـذه المقولة أنَّ المـراد بذلك كتب مخصوصـة في هذه المعاني الثَّلاثة غير معتمد عليها، ولا موثوق بصـحَّتها لسوء أحوال مصنِّفيها، وعدم عدالة ناقليها، وزيادات القصَّاص فيها، كما قرَّره الخطيب في «الجامع»، إلاَّ أنَّه وقع التَّساهل في التَّفسير وأطلقـت فيه المرويَّات والآراء ما لم يقع في سـائر العلوم الأخرى كالحديث، قال الشَّـيخ حمَّاد الأنصاري رحمه الله: «المغازي والتَّفسير والملاحم أكثرها تُروى بأحاديث موضوعة وضعيفة»[5].

□ **ثالثًا:** لا تقـرأ ولا تطالـع في كتـاب تفسـير - لا سـيما في مرحلة الطَّلب الأولى - إلاَّ الَّذي نصح به العلماء وأهل الخبرة بخبايا هـذا الفنِّ، مـن ذوي المعتقد الصَّـحيح والمنهج السَّـليم، البعيد عن مناهج أهل الأهواء ومسـالك المبتدعة؛ لأنَّ التَّفسـير ولجه جميع الطَّوائف، وما من طائفة إلاَّ ولها مفسِّرون معتنون به، جمعًا وتأليفًا، ودعوة وتأصـيلاً لمذهبهم، ولا يخلو عصـر من وجود مفسِّرين إلى وقتنا الحاضـر، وكثير ممَّن تطرَّق إلى التَّفسـير مـن الطَّوائف: المتكلِّمة وعلى رأسهم الأشاعرة، فكن من ذا على حذر.

□ **رابعًا:** ابدأ بمطالعة التَّفاسـير المستوعبة لمسائل التَّفسير قدر الإمكان، كأسـباب النُّزول وشـرح المفـردات والغريب وبيان المعنى الإجمالي للآيات، والجامعة بين الاختصار والإيجاز، وبين سـهولة الأسـلوب والعبارة الَّتي لا تحتاج إلى شـرح وفكٍّ ليقصر زمن قراءتها [6].

□ **خامسًـا:** لا تفتـح أكثر مـن كتاب في التَّفسـير حتَّى تكمل الأوَّل مادمـت في مرحلـة الطَّلـب الأولى، مـع مراعـاة تـرك الإشكالات الَّتي تعترضـك؛ لأنَّ الغرض هو فهم المعنى الإجمالي للآيات واستظهارُها، وهذا يتطلَّب قراءة الكتاب أكثر من مرَّة[7].

□ **سادسًا:** لا تقتني من كتب التَّفسير إلاَّ الطَّبعات المصحَّحة - إن وُجِـدت - والَّتي فيها عناية بتصـحيح النَّصِّ وتوثيقه، وتحقيق الأحاديث والآثار الموجودة فيها، هذا في تفاسـير أهل السُّنَّة، ومن كان على مذهبهم الرَّضي، وأمَّا تفاسير أهل البدع فلا يكفي فيها تحقيـق النَّصِّ وتخريج الآثار حتَّى ينضـمَّ إلى ذلـك التَّنبيه على أخطائهم وشُبههم، وكشف زغل معتقداتهم الرَّديَّة، ردًّا للحقِّ إلى نصـابه وبترًا لغراس أصولهم الفاسـدة، فـ«كشَّاف الزَّمخشري» مثـلاً لا يُقـرأ بغيـةَ الاسـتفادة ممَّا تضمَّنه من أسـرار الإعجاز القرآني، والغوص في المعاني البلاغيَّة الدَّقيقة، باعتبار أنَّه أوَّل من قعَّد للبلاغة القرآنيَّة، إلاَّ ومعه حاشـية «الانتصاف من الكشَّاف» لابـن المنيِّر المالكي الَّذي نبَّه في الجملة على دسائسـه الاعتزاليَّة، ودعوته الجليَّـة أحيانًا والخفيَّة تارة أخرى[8] لمذهبه الهالك، حتَّى قال فيه أبو حيَّان - صاحب «البحر المحيط» - هاجيًا إيَّاه:

ويحتال للألفاظ حتَّى يديرها

لمذهب سوء فيه أصبح مارقًا

وقال فيه شـيخ الإسـلام ابن تيمية رحمه الله بحقٍّ وهو يتكلَّم عن تفاسـير أهل البدع من المعتزلة وغيرهـم: «ومن هؤلاء من يكون حسـن العبارة فصـيحًا، ويدسُّ البدع في كلامه - وأكثر النَّاس لا يعلمون - كصاحب «الكشَّاف» ونحوه، حتَّى إنَّه يروج على خلق كثير

(4) أصل هذه المقولة للإمام أحمد رحمه الله كما في «الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع» للخطيب (162/2).

(5) «المجموع في ترجمة حماد الأنصاري» (524/2).

(6) مستفاد من محاضرة «منهجية التفسير» للدكتور مساعد الطَّيَّار.

(7) مستفاد من محاضرة «منهجية التفسير» للدكتور مساعد الطَّيَّار.

(8) قال البلقيني: «استخرجت من «الكشَّاف» اعتزالاً بالمناقيش من قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: 185]، قال: أيُّ فوز أعظم من دخول الجنَّة، أشار به إلى عدم الرُّؤية [انظر «الإتقان» للسُّيوطي (243/4)]



ممَّن لا يعتقد الباطل ـ من تفاسيرهم الباطلة ـ ما شاء الله»[9].

□ سابعًا: احذر المختصرات في التَّفسير؛ فإنَّ الاختصار أشبه بالتَّأليف، وقد يكون أحيانًا أصعب منه، فليس كلّ من اختصر تفسيرًا وُفِّق لخدمته وإتقان جمعه وترتيبه، لا سيما إذا كان قَصْدُ مُخْتَصِره التَّرويج لمعتقد فاسد أو منهج منحرف ليس عليه صاحب التَّفسير الأصل، فيتصرَّف في الكلام ويصيغه وفق مشْربه بذريعة الإيجاز وترك الإطناب والتَّصرُّف، وانظر ما كتبه بعضُ أهل العلم في التَّحذير من مختصرات الصَّابوني في التَّفسير على سبيل المثال[10].

□ ثامنًا: ليس كلُّ ما عُرف أنَّه كتاب تفسير يتضمَّن بالضَّرورة موضوع التَّفسير من شرح المفردات والجمل، وبيان المعاني والأحكام المتعلِّقة بالآيات فلا تغتر، فبعض التَّفاسير فيها استطراد مملٌّ في بحث قضايا خارجة عن علم التَّفسير، وهذا ما حمل بعض أهل العلم ليقولوا عن «تفسير الرَّازي»: «فيه كلُّ شيء إلاَّ التَّفسير»[11]، بل إنَّ بعض مباحثه ليست من علوم الشَّريعة فضلاً عن علم التَّفسير، كالأمور العقليَّة والفلسفيَّة وبحوث العلوم التَّجريبيَّة الَّتي شحن بها تفسيره، ونفس العبارة الَّتي قيلت في «تفسير الرَّازي» قيلت في تفسير الطَّنطاوي جوهري المسمَّى «الجواهر في تفسير القرآن»، بل هو أحقُّ من تفسير الرَّازي بهذا الوصف وأولى به[12] حيث أخضع تفسيره لنظريَّات علميَّة حديثة، وتجارب العلوم الكونيَّة الَّتي راجت في عصره، وكثير منها تجاوزها الزَّمن وصارت ملغاة من قاموس العلم المعاصر.

وقال الشَّيخ حمَّاد الأنصاري عن «تفسير الشَّعراوي»: «تفسير الشَّعراوي للقرآن عبارة عن فلسفة»[13]، وهذا الَّذي قيل في مثل هذه التَّفاسير سبق إليه جمع من العلماء النُّقَّاد، حيث جاء حكمهم على بعض التَّفاسير بالوصف نفسه وإن اختلفت تعابيرهم لاسيما تفاسير المبتدعة من المتصوِّفة والباطنيَّة والرَّوافض وغيرهم، فتفسير السّلمي مثلاً المسمَّى «حقائق التَّفسير»، قال عنه أبو الحسن الواحدي: «صنَّف أبو عبد الرَّحمن السّلمي «حقائق التَّفسير»، فإن اعتقد أنَّ ذلك تفسير فقد كفر»[14].

□ تاسعًا: لا تغترَّ بتزكية بعض العلماء لجملة من كتب التَّفاسير، فقد يكون حكمهم لأجل أمر معيَّن تميَّزت به عن غيرها، وليس على الإطلاق، يرجع أحيانًا إلى نوع العلم الَّذي برز فيه وغلب على تفسيره، فيصير كالمرجع في ذلك التَّخصُّص وهو ما يعرف باتِّجاهات المفسِّرين كالاتِّجاه اللُّغوي أو النَّحوي أو البلاغي أو الفقهي، ومن هذه الاتِّجاهات ما يرجع إلى المذهب العقدي للمفسِّر، فقد يكون مذهبه محمودًا إلاَّ أنَّ تفسيره ناقص غير مستوعب لمسائل التفسير.

□ عاشرًا: إذا اقتنيت كتابًا في التَّفسير فاحرص على قراءة مقدِّمته إذا كانت فيه واعتنِ بها وتفهَّم مضمونها؛ فإنَّها تفيدك كثيرًا لاسيما إذا كانت المقدِّمة من وضع المؤلِّف نفسه، فغالبًا ما تشتمل على التَّعريف بالكتاب وبطريقة التَّفسير ومنهج المفسِّر وذكر المصادر والمصطلحات الَّتي اعتمدها في تحرير كتابه وما إلى ذلك من الفوائد، وبعض هذه المقدِّمات حوت على نفائس وعلوم لم توجد في كتب علوم القرآن، وانظر على سبيل المثال: مقدِّمة ابن جزي على كتابه في التَّفسير المسمى «التَّسهيل لعلوم

(9) «مقدِّمة في أصول التَّفسير» (ص86).

(10) من هؤلاء المحذِّرين الشَّيخ العلاَّمة بكر أبو زيد والشَّيخ محمَّد جميل زينو رحمهما الله، والشيخ صالح الفوزان، حفظه الله.

(11) معظم من أورد هذه المقولة نسبها لأبي حيَّان الأندلسي ـ صاحب «البحر المحيط» ـ وهي في «تفسيره» (511/1)، والحقُّ أنَّه ذكرها منسوبةً لبعض العلماء، وكأنَّه لم يرضها؛ لأنَّه قال: «ولذلك حُكي عن بعض المتطرفين من العلماء»، مع إقراره أنَّ الرَّازي جَمَعَ في كتابه في التَّفسير أشياء كثيرة طويلة لا حاجة لها في علم التَّفسير»، ونُسب إلى شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ أنَّه ذكر «تفسير الرَّازي» وقال فيه هذه المقولة، نقلها الصَّفدي في «الوافي بالوفيات» (254/4) حين ذكر ذلك لأبي الحسن علي السُّبكي، وليست في كتب شيخ الإسلام فليتحقَّق.

□ تنبيه:

عدَّ نفرٌ منْ أهل العلم المقولة الَّتي ذُكرت في «تفسير الرَّازي» مبالغةً؛ منهم: أبو الحسن علي السُّبكي كما في «الوافي بالوافيات» (254/4)، والدُّكتور أبو شهبة في «الإسرائيليَّات والموضوعات في كتب التَّفسير» (ص134)، والشَّيخ الفاضل ابن عاشور في «التَّفسير ورجاله» (ص85)، والدُّكتور مساعد الطَّيَّار في «مقالات في علوم القرآن وأصول التَّفسير» (ص342)، ولعلَّ منَ الإنصاف أن يُقال في «تفسير الرَّازي» كما قال السُّبكي: «وإنَّما فيه مع التَّفسير كلُّ شيء»، ومع ذلك لا يُنصح طالب العلم بقراءة هذا التَّفسير حتَّى يتأهَّل؛ لأنَّ الرَّازي كما قال الذَّهبي عنه في «ميزان الاعتدال» (340/3): «رأس في الذَّكاء والعقليَّات، لكنَّه عريٌّ من الآثار، وله تشكيكات في مسائل من دعائم الدِّين تُورِّث حيرة».

(12) قال بهذا الدُّكتور محمَّد حسين الذَّهبي في «التَّفسير والمفسِّرون» (12/5).

(13) «المجموع» (595/2).

(14) «التَّفسير والمفسِّرون» (420/2).



التَّنزيل»، ومقدِّمة الطَّاهر ابن عاشور على تفسيره «التَّحرير والتَّنوير»، ومقدِّمة القاسمي على تفسيره المسمَّى «محاسن التَّأويل»، وغيرها...

□ حادي عشر: لا تقرأ كتابًا في التَّفسير إذا كنت في بداية الطَّلب إلاَّ بعد التَّأكُّد من سلامة عقيدة المفسِّر ومنهجه في التَّفسير، وخاصَّة ما يتعلَّق بآيات الصِّفات، فإنَّ الانحراف في هذا الباب طغى على كثير من كتب التَّفسير حتَّى المشتهرة بين أهل العلم و طلبته.

□ ثاني عشر: لا يكون اعتمادك على كتب تفسير غريب القرآن وحدها؛ فإنَّ هذا النَّوع من التَّفاسير يقتصر على شرح الألفاظ وبيان الغريب ليس إلاَّ[15]، لذا فهي تُقرأ مع تفاسير أخرى لم تعالج المعاني اللُّغويَّة الدَّقيقة للَّفظة القرآنيَّة، وإنَّما كان اعتناؤها ببيان معاني الجمل ودلالتها؛ لأنَّه ثمَّة فرقٌ واضح بين تفسير اللَّفظ والمراد من اللَّفظ، فتفسير اللَّفظ هو بيان معناه من جهة اللُّغة، والمراد باللَّفظ هو تبيين معناه داخل السِّياق الَّذي جاء فيه، فالأوَّل لا يُعتمد بمجرَّده في تفسير القرآن؛ لأنَّه قد يُخالف المعنى الشَّرعي أو العرفي للَّفظ، ولذلك أصَّل العلماء قاعدة: «ليس كلُّ ما صحَّ لغةً صحَّ تفسيرًا»[16].

□ ثالث عشر: لا تتوجَّه في مطالعة كتب التَّفسير إلى الَّتي تُعنى بجمع الأقوال ونسبتها إلى أصحابها فَحَسب، حتَّى تتمكَّن من فهم بعض أصول التَّفسير وتطبيقها، كالرُّجوع إلى موارد المفسِّر وطرق التَّفسير وأسباب الاختلاف في التَّفسير وقواعد التَّرجيح وغير ذلك؛ لأنَّه من غير إعمال هذه الأصول يقع عندك تشويش في الفهم، وربَّما أعياك معرفة المراد، ثمَّ إنَّ بعض هذه التَّفاسير الَّتي عُنيت بجمع الأقوال لا تلتفت إلى تحقيقها وتمحيصها وبيان خطئها، فتفسير الماوردي المسمى «النُّكت والعيون» ينقل فيه أقوال المعتزلة ولا يبيِّنُها ولا يردُّ عليها، و«زاد المسير» لابن الجوزي ـ وهو أفضل من الأوَّل ـ يذكر أقوال المفسِّرين منسوبةً إليهم، لكنَّها غير مسندة، و«تفسير القرآن العظيم» لابن أبي حاتم»، و«الدُّر المنثور» للسُّيوطي، هما أغزر فائدة من حيث جمع الأقوال وإن رُويت بالأسانيد فهي تحتاج إلى دراسة ونقد وتتبُّع، ولعلَّ مِن أحسن كتب التَّفسير إيرادًا للأقوال مع التَّرجيح «تفسير ابن جرير الطَّبري»، ويليه «تفسير ابن كثير» و«تفسير البغوي»، ومن التَّفاسير الَّتي تُعنى بتوجيه الأقوال: «تفسير ابن عطيَّة»، لكن أحيانًا عند التَّرجيح يذكر قول المحقِّقين الَّذي يختاره، وهو في الحقيقة قول الأشاعرة الَّذي هو على مذهبهم.

□ رابع عشر: إذا مررت بنكتة أو لطيفة أو بديعة في التَّفسير فلا تهملها ودوِّنها حتَّى لا تفوتك؛ فإنَّه قد تستوقف المطالع لكتب التَّفسير استدراكات لا تخلو من الطُّرفة، أو ترجيحات وتعقُّبات تتَّسم بحسن انتقاء الأقوال مع جمال التَّعبير، فمن الأوَّل مثلاً تجد الألوسي عند قوله تعالى: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾ [البقرة] يشير إلى قول الواقدي (ت402): «إنَّ القلَّة تقتضي العدم؛ أي لا قليلاً ولا كثيرًا، ثمَّ يردُّه بقوله: «ويمكن أن يقال: إنَّ ذلك على طريق الكناية؛ فإنَّ قلَّة الشَّيء تستتبع عدمه في أكثر الأوقات لا على أنَّ لفظ القلَّة مستعمل بمعنى العدم، فإنَّه هنا قول بارد جدًّا ولو أوقد عليه الواقدي ألف سنة»[17].

ومن الثَّاني تجد ابن عطيَّة في «المحرَّر الوجيز» (99/15) لَمَّا تعرَّض لتفسير لفظة المحروم في قوله تعالى: ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥﴾ [المعارج]، وبعد أن أورد بعض تفسيرات أهل العلم للَّفظة، منها أنَّ المحروم: الَّذي قد ثبت فقره ولم تنجح سعايته لدنياه، ومنها أنَّ المحروم من احترق زرعه، ومنها أنَّ المحروم من ماتت ماشيته، وجَّه هذه الأقوال توجيهًا سليمًا خلا من كلِّ تعارض، فقال: «هذه أنواع الحرمان لا أنَّ الاسم يَلْزَمُ هذا خاصَّة»، فكأنَّه أراد أن يجعل من لفظة المحروم لفظًا عامًّا يندرج تحته هذه الأقوال وغيرها ممَّن يشملها الوصف المذكور.

ثمَّ إنَّ من لطائفه أنَّه أورد قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله لَمَّا قال: إنَّ المحروم هو الكلب، وهو تفسير مستغرب في الظَّاهر، لكن وجَّهه إلى ما يتَّفق مع المعنى العام فقال: «أراد ـ والله أعلم ـ أن يذكر مثالاً من الحيوان ذي الكبد الرَّطبة لما فيه من الأجر حسب الحديث المأثور، ثمَّ يزداد تعجُّب ابن عطيَّة حين يورد قول الإمام الشَّعبي: «أعياني أن أعلم مَنِ المحروم»، ثمَّ يتعقَّبه بمثل هذا القول المستطرف المستظرف: «يرحم الله الشَّعبي؛ فإنَّه في هذه المسألة محروم، ولو أخذه اسم جنس فيمن عسرت مطالبه كان له، وإنَّما كان يطلب نوعًا مخصوصًا كالسَّائل»[18].

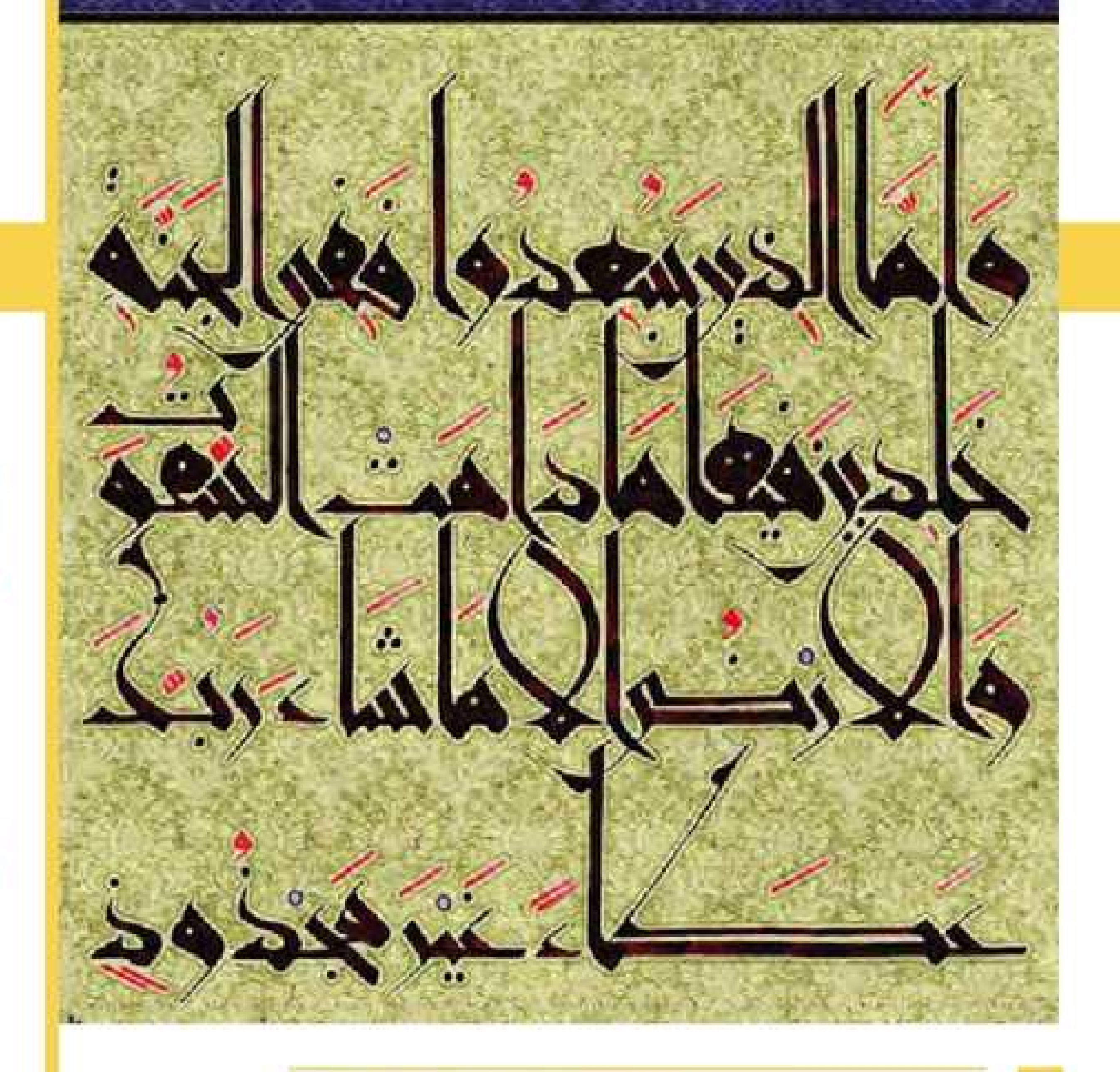
هذا ما تيسَّر الاهتداء إليه، والتَّنبيه عليه، منَ المعالم الهادية لقراءة كتب التَّفسير، ولا شكَّ أنَّ هناك معالم أخرى يرجع إليها حسب النُّبوغ والتَّقدُّم في مرحلة طلب هذا العلم، والله الهادي إلى سواء الصِّراط.

(15) هذا في الجملة، وإلاَّ فتوجد بعض كتب الغريب اعتنت بذكر دلالات الألفاظ حسب سياق الآيات الَّتي ترد فيها، كـ«مفردات الرَّاغب الأصفهاني»، فقد كاد ينفرد بهذه الميزة.

(16) وانظر لتفصيل القاعدة مع ذكر الأمثلة ما كتبه الدُّكتور محمد بن عمر بازمول في «شرحه لمقدِّمة التَّفسير لابن تيمية» (ص22ـ23).

(17) «روح المعاني» (319/1).

(18) «المحرر الوجيز» (100/15).



الجود بما في حديث «شيبتني هود»

د.عبد الخالق ماضي

عن أبي بكر رضي الله عنه قال:
يا رسول الله! قد شبت!
قال:
«شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَالوَاقِعَةُ وَالمُرْسَلاتُ وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ».

هذا الحديث مداره على أبي إسحاق عمرو بن عبد الله السَّبيعي الهمداني، وقد اختلف عليه اختلافًا كثيرًا حتَّى قال بعض أهل العلم بالحديث إنَّه حديث مضطرب ومثَّلوا به له.

وهذا الاختلاف على أبي إسحاق من اثني عشر وجهًا:

الأول: يُروى عنه عن عكرمة عن ابن عبَّاس عن أبي بكر رضي الله عنه عن النَّبي صلى الله عليه وسلم، أخرجه ابن سعد في «الطَّبقات» (335/1)، وأبو بكر المروزي في «مسند أبي بكر الصّدِّيق» (30)، والتِّرمذي في «سننه» (3297) وفي «الشَّمائل» (41) وفي «العلل الكبير» (899/2)، ومن طريقه البغوي في «الأنوار» (451)، والدَّارقطني في «العلل» (350/4)، والحاكم في «المستدرك» (343/2) وأبو نعيم في «الحلية» (350/4) والبيهقي في «دلائل النُّبوَّة» (358/1)، وابن عساكر في «تاريخه» (170/4) من طريق شيبان بن عبد الرَّحمن عن أبي إسحاق عن عكرمة عن ابن عبَّاس قال: قال أبو بكر... فذكره، قال التِّرمذي: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه من حديث ابن عبَّاس إلاَّ من هذا الوجه».

وتابع شيبانَ على وصله؛ يونس بن أبي إسحاق عن أبي إسحاق به، يرويه عنه النَّضر بن شميل من هذا الوجه، رواه الدَّارقطني في «العلل» (202/1)، وتابعه أيضًا أبو الأحوص عن أبي إسحاق به، أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنَّفه» (30897/553/10)، والحاكم في «المستدرك» (518/2)، وقال: «صحيح على شرط البخاري ولم يخرِّجاه»، ووافقه الذَّهبي والشَّيخ الألباني، وتابعه أيضًا إسرائيل بن يونس بن أبي إسحاق به، يرويه عنه عبيد الله ابن موسى عند ابن سعد في «الطَّبقات» (335/1)، وإسماعيل ابن صُبيح عند الدَّارقطني في «العلل» (201.200/1)، والنَّضر ابن شميل عند الدَّارقطني في «العلل» (201/1).

الثَّاني: يروى عنه عن عكرمة عن أبي بكر رضي الله عنه عن النَّبي صلى الله عليه وسلم، يرويه من هذا الوجه عن أبي إسحاق ثلاثة: أبو الأحوص سلاَّم بن سليم، رواه سعيد بن منصور في «السُّنن» (1110)، وأبو بكر المروزي في «مسند الصّدِّيق» (31) وابن أبي شيبة (30259) وابن سعد في «الطَّبقات الكبرى» (336/1) وأبو يعلى (108) والدَّارقطني في «العلل» (205/1) وابن الشّجري في «الأمالي» (241/2) وابن عساكر في «التَّاريخ» (172/4)، وإسرائيل بن يونس يرويه عنه النَّضر بن شميل عند الدَّارقطني في «العلل» (203/1) ووكيع بن الجرَّاح عند الدَّارقطني في «العلل» (203/1 ـ 204) وأبو أحمد الزُّبيري عند عمر ابن شبَّة في «تاريخ المدينة» (626/2) وعبد الله بن رجاء عند الدَّارقطني في «العلل» (204/1) ومخوّل بن إبراهيم عند الدَّارقطني في «العلل» (204/1)، وقد رجَّح الدَّارقطني رواية هؤلاء الخمسة عن إسرائيل، وخاصَّة وأنَّ فيهم عبد الله ابن رجاء وهو من المُقدّمين في إسرائيل بن يونس، وزهير بن معاوية رواه الدَّارقطني في «العلل» (204/1)، ويونس بن أبي إسحاق، يرويه القاسم بن الحكم عنه من هذا الوجه، رواه الدَّارقطني في «العلل» (204/1 ـ 205)، والقاسم بن الحكم بن كثير ابن جندب العُرني أبو أحمد الكوفي؛ صدوق فيه لين، كما قال الحافظ في «التَّقريب».

الثَّالث: يروى عنه عن عكرمة عن النَّبي ﷺ، يرويه عنه أبو بكر بن عيَّاش، رواه عبد الله بن أحمد في زياداته على «الزُّهد» (46) والدَّارقطني في «العلل» (205/1)، ويرويه عنه أيضًا مسعود ابن سعد الحنفي، رواه الدَّارقطني في «العلل» (205/1 ـ 206).

الرَّابع: يروى عنه، عن النَّبي ﷺ، تفرَّد به معمر ابن راشد الصَّنعاني من هذا الوجه، رواه عبد الرَّزَّاق في «المصنَّف» (5997).

الخامس: يروى عنه عن أبي الأحوص عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه عن أبي بكر رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ، تفرَّد به عمرو بن ثابت بن هرمز البكري أبو محمَّد، ويقال: أبو ثابت، الكوفي، وهو عمرو بن أبي المقدام الحدَّاد مولى بكر بن وائل وهو متروك الحديث؛ رواه الطَّبراني في «الكبير» (10091)، ومن طريقه الشَّجري في «الأمالي» (241/2) ورواه الدَّارقطني في «العلل» (210/1).

السَّادس: يروى عنه عن عمرو بن شرحبيل عن أبي بكر رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ، من طريق عبد الرَّحيم بن سليمان عن زكريا بن أبي زائدة به، رواه أبو بكر المروزي في «مسند أبي بكر الصِّدِّيق» (32)، ومن طريقه الدَّارقطني في «العلل» (208/1) وابن عساكر في «تاريخه» (175/4).

السَّابع: يروى عنه عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها عن أبي بكر رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ، تفرَّد به محمَّد بن سلمة النّصيبي، رواه الدَّارقطني في «العلل» (208/1)، ورواه أبو معاوية محمَّد ابن خازم عن زكريا بن أبي زائدة عن أبي إسحاق عن مسروق عن أبي بكر به، رواه أبو بكر الشَّافعي في «الغيلانيَّات» (107)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (172/4)، والطَّبراني في «الأوسط» (8269)، وقال: «لم يرو هذا الحديث عن أبي إسحاق عن مسروق عن أبي بكر إلاَّ زكريا بن أبي زائدة، تفرَّد به أبو معاوية»، وكأنَّه أخطأ فيه؛ لأنَّه رواه من هذا الوجه، ورواه عن الشَّعبي عن مسروق، وفي ترجمته جاء أنَّه يخطئ وربَّما أتى بما ينكر في غير حديث الأعمش، وهو أحفظ النَّاس لحديث الأعمش كما قال ابن حجر.

الثَّامن: يروى عنه عن عامر بن سعد البجلي عن أبي بكر رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ، رواه الدَّارقطني في «العلل» (210/1) وأبو الحسن الطِّيوري في «الطِّيوريَّات» انتخاب أبي طاهر السِّلفي (856)، تفرَّد به عبد الكريم الخزَّاز.

التَّاسع: يروى عنه عن مصعب بن سعد عن أبيه سعد ابن أبي وقَّاص رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ، رواه الدَّارقطني في «العلل» (209/1)، تفرَّد به عبد الكريم بن عبد الرَّحمن الخزَّاز.

العاشر: يروى عنه عن عامر بن سعد عن أبيه سعد ابن أبي وقَّاص رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ، رواه الدَّارقطني في «العلل» (209/1) وأبو الشَّيخ الأصبهاني في «جزء فيه حديثه» انتقاء أبي بكر بن مردويه (74)، تفرَّد به عبد الكريم الخزَّاز.

الحادي عشر: يروى عنه عن أبي جحيفة عن النَّبي ﷺ، تفرَّد به عليُّ بن صالح بن حي؛ رواه التِّرمذي في «الشَّمائل» (74) ومن طريقه رواه البغوي في «الأنوار» (282) وأبو الفضل الزُّهري في «حديثه» (256) وسمّويه الأصبهاني في «فوائده» (30)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (350/4) ورواه أبو يعلى (880)، ومن طريقه ابن عساكر في «التَّاريخ» (173/4)، ورواه الطَّبراني في «الكبير» (123/22) وأبو نعيم في «الحلية» (350/4).

الثَّاني عشر: يروى عنه عن علقمة عن أبي بكر عن النَّبيِّ ﷺ، يرويه عنه من هذا الوجه الحسن بن قتيبة، رواه الدَّارقطني في «العلل» (209/1)، والحسن بن قتيبة الخزاعي المدائني قال فيه أبو حاتم: «ليس بالقويِّ، ضعيف الحديث»، وقال الدَّارقطني: «متروك الحديث»، وقال العقيلي: «كثير الوهم»، وقال الذَّهبي: «هالك»، انظر «الجرح والتَّعديل» (33/3 ـ ت138)، «سؤالات البرقاني للدَّارقطني» (ص12 ـ ت 38)، «الميزان» (270/2).

□ فتبيَّن من هذا أنَّ أبا إسحاق السَّبيعيَّ قد اختلف عليه من اثني عشر وجهًا:

□□□

أمَّا الوجهان الثَّالث والسَّادس: فمردودان لمخالفة أصحابها رواية الأكثر، والرَّابع: تفرَّد به معمر بن راشد الصَّنعاني وهو ثقة؛ لكنَّ في حديثه عن أهل العراق ضعف، والخامس: تفرَّد به عن أبي إسحاق راوٍ متروك، والسَّابع تفرَّد به راوٍ ضعيف، والثَّامن والتَّاسع والعاشر: فمردودة لاضطراب عبد الكريم ابن عبد الرَّحمن الخزَّاز، ولعلَّ هذا منه، فقد قال فيه الحافظ ابن حجر في «التَّقريب»: «مقبول»، أو من الرَّاوي عنه في هذه الأوجه جبارة بن المغلّس، وهو ضعيف، كما في «التَّقريب»، والحادي عشر: مردود لمخالفة روايته لروايات الثِّقات، والثَّاني عشر فيه راوٍ ضعيف جدًّا.

وأمَّا **الوجه الثَّاني**؛ فهو قويٌّ لولا أنَّ **الوجه الأوَّل** قد رواه أربعة من الثِّقات مرفوعًا موصولاً، وهي زيادة من الثِّقات يتعيَّن الأخذ بها.

وبهذا يتبيَّن بأنَّ الرِّواية الصَّحيحة هي رواية أبي إسحاق عن عكرمة عن ابن عبَّاس عن أبي بكر عن النَّبي ﷺ؛ لأنَّها موصولة من طريق أربعة من الثِّقات، ومنهم إسرائيل بن يونس بن أبي إسحاق، وهو من أثبت النَّاس في أبي إسحاق[1].

وبعد معرفة طرق هذا الحديث، وبيان الثَّابت منها، فاعلم أيُّها القارئ اللَّبيب؛ أنَّ سورة هود فيها من ذكر الأمم، وما حلَّ بهم من عاجل بأس الله، ما يجعل أهل اليقين إذا تلوها انكشفت لهم من مُلكه، وسلطانه، وبطشه، وقهره، ما تذهل منه النُّفوس، وتشيب منه الرُّؤوس، وقد قال النَّبي ﷺ ذلك لـمَّا كان يلحقه عند الفكر فيما يتلوه منها من خشية الله وخوف نقماته، لا أنَّ هودٌ وأخواتها كانت تفعل فيه الشَّيب.

قال القرطبي: «قال أبو عبد الله ـ أي الحكيم التِّرمذي ـ: «فالفزع يورث الشَّيب، وذلك أنَّ الفزع يُذهل النَّفس فيُنشِّف رطوبةَ الجسد، وتحت كلِّ شعرة منبع، ومنه يعرق، فإذا انتشف الفزع رطوبته، يبست المنابع، فيبس الشَّعر وابيضَّ؛ كما يُرى الزَّرعُ أخضر بسقياه، فإذا ذهب سقياه يبس فابيضَّ؛ وإنَّما يبيضُّ شعر الشَّيخ لذهاب رطوبته ويُبس جلده، فالنَّفس تَذهَل بوعيد الله وأهوال ما جاء به الخبر عن الله، فتذبل، وينشِّف ماءها ذلك الوعيد، والهول الَّذي جاء به؛ فمنه تشيب، وقال الله تعالى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾، فإنَّما شابوا من الفزع»[2].

وقيل: إنَّ الَّذي شيَّب النَّبيَّ ﷺ في هود قول الله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، وقد رُوي عن أبي عبد الرَّحمن السُّلمي قال: «سمعت أبا عليٍّ الشَّبُّوِّيّ يقول: رأيت النَّبيَّ ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله! روي عنك أنَّك قلت: شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا؟ فقال: نَعَمْ، فقلت له: ما الَّذي شيَّبك منها؟ قصصُ الأنبياء وهلاكُ الأمم؟ قال: لاَ، وَلَكِنْ قَوْلُهُ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾»، أخرجه البيهقيُّ في «شعب الإيمان» (82/4)، وهذه قصَّة وقعت في المنام على فرض صحَّتها، والأحكام لا تؤخذ من المنامات، لكنَّ النَّبيَّ ﷺ أُمِر بالاستقامة أيضًا في سورة الشُّورى، وذلك في قول الله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾، فلماذا كانت هودٌ ممَّا شيَّبه ﷺ دون الشُّورى؟

فالجواب ـ والله أعلم ـ: أنَّ صيغة الأمر في هود مقترنة بالفاء، وهي تقتضي الفور والمبادرة بالمأمور به؛ ليتحقَّق معنى التَّعقيب، بخلافها في سورة الشُّورى؛ فإنَّها مقترنة بالواو، وهي لمطلق الجمع لا تقتضي الفوريَّة، والمطلوب فورًا أشقُّ بالتَّكليف وأحقُّ بالاهتمام، وأشدُّ على النَّفس، فيكثر لذلك تعبُها، وفكرُها، وذلك داعيةُ الشَّيب، فيَنشأ منه، والله أعلم.

وقال بعض العلماء: «سبب شيبه من هذه السُّور ما فيها من ذكر القيامة والبعث والحساب والجنَّة والنَّار، والله أعلم بمراد رسوله ﷺ».

وثبت في «صحيح مسلم» عن سفيان بن عبد الله الثَّقفي رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا بعدك، ـ وفي رواية ـ: غيرك، قال: «قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ فَاسْتَقِمْ»[3]، وفي «مسند الإمام أحمد» عنه أيضًا: «قل آمنت بالله ثُمَّ استقم»[4].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأهلُ الاستقامة والاعتدال يُطيعون الله ورسوله بحسب الإمكان، فيتَّقون اللهَ ما استطاعوا، وإذا أمرهم الرَّسولُ بأمر أتوا منه ما استطاعوا، ولا يتركون ما أُمروا به لفعل غيرهم ما نُهيَ عنه، بل كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾، ولا يُعاونون أحدًا على معصية، ولا يُزيلون المنكرَ بما هو أنكرُ منه، ولا يأمرون بالمعروف إلاَّ بالمعروف، فهم وَسَط في عامَّة الأمور، ولهذا وصفهم النَّبيُّ ﷺ بأنَّهم الطَّائفة النَّاجية لـمَّا ذكر اختلافَ أمَّته وافتراقهم»[5].

(1) انظر: «دراسة حديث شيبتني هود» للدكتور سعد الغامدي.
(2) «التَّفسير» (63/11).

(3) «صحيح مسلم» (38).
(4) «المسند» (15417).
(5) «جامع الرسائل» (90/3).

وقال ابن دقيق العيد رحمه الله في «شرح الأربعين» (ص57): «هذا من جوامع الكلم الَّتي أوتيها ﷺ، فإنَّه جمع لهذا السَّائل في هاتين الكلمتين معانيَ الإسلام والإيمان كلَّها، فإنَّه أمره أن يجدِّد إيمانه بلسانه، متذكِّرًا بقلبه، وأمره أن يستقيم على أعمال الطَّاعات، والانتهاء عن جميع المخالفات؛ إذ لا تأتي الاستقامة مع شيء من الاعوجاج، فإنَّها ضدُّه، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ الآية: أي آمنوا بالله وحده، ثمَّ استقاموا على ذلك، وعلى الطَّاعة إلى أن توفَّاهم الله عليها».

وقال ابن القيِّم رحمه الله: «وأن تكون هذه الاستقامة على الفعل والتَّرك، تعظيمًا لله سبحانه وأمره، وإيمانًا به واحتسابًا لثوابه، وخشية من عقابه، لا طلبًا لتعظيم المخلوقين له، ومدحهم، وهربًا من ذمِّهم وازدرائهم، وطلبًا للجاه والمنزلة عندهم، فإنَّ هذا دليلٌ على غاية الفقر من الله، والبعد عنه، وأنَّه أفقر شيء إلى المخلوق، فسلامة النَّفس من ذلك واتِّصافها بضدِّه؛ دليلُ غناها؛ لأنَّها إذا أذعنتْ منقادةً لأمر الله، طوعًا واختيارًا ومحبَّةً وإيمانًا واحتسابًا؛ بحيث تصير لذَّتُها، وراحتُها، ونعيمها، وسرورها في القيام بعبوديَّته، كما كان النَّبيُّ ﷺ يقول: «يَا بِلاَلُ أَرِحْنَا بِالصَّلاَةِ»، وقال ﷺ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ»، وقرَّة العين فوق المحبَّة، فجعل النِّساء والطِّيب ممَّا يحبُّه، وأخبر أنَّ قرَّة العين الَّتي يطمئنُّ القلب بالوصول إليها وتَحضُرُه لذَّتُه وفرحُه وسُرورُه وبهجتُه، إنَّما هو في الصَّلاة...»[6].

إنَّ أعظم ما في الإسلام الاستقامة على أوامر الله عزَّ وجل، واتِّباع أخلاق النَّبي ﷺ، واقتفاء سنَّته، وعدم الابتداع في الدِّين وإنَّه ليسير على من يسَّره الله عليه، وإن كانت النَّفس بطبيعتها تركَن إلى الكسل، والخمول، والشَّهوات، والملذَّات، لكنَّ الإنسان صاحبَ العزيمة القويَّة، والهمَّة العالية، والإيمان الصَّحيح، والعقيدة الرَّاسخة، يستطيع بفضل الله تعالى أن ينتصر على هذه النَّفس ويُلزمُها مداومةَ الطَّاعة، ويبعدُها عن المعصية.

قال النَّووي في «شرح مسلم» (9/2): «قال الأستاذ أبو القاسم القشيري في «رسالته»: الاستقامة درجة بها كمال الأمور وتمامها، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها، ومن لم يكن مستقيمًا في حالته؛ ضاع سعيُه، وخاب جهدُه، قال: وقيل: الاستقامة لا يطيقها إلاَّ الأكابر؛ لأنَّها الخروجُ عن المعهودات، ومفارقةُ الرُّسوم والعادات، والقيامُ بين يدي الله تعالى على حقيقة الصِّدق، ولذلك قال ﷺ: «اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا»، وقال الواسطي: الخصلة الَّتي بها كمُلت المحاسن، وبفقدها قبُحت المحاسن».

والمستقيم هو الَّذي يتميَّز في النَّاس عن غيره، فهو كالجبل لا يذيبه الحرُّ ولا يضرُّه القرُّ، ولا تحرِّكه الرِّيح، ولا يذهب به السَّيل العظيم، إذا أُسيء إليه؛ قابل الإساءة بالإحسان، يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾.

والمستقيم لا يشغَله متاع الحياة الدُّنيا وزُخرُفُها الزَّائل عن عبادة ربِّه سبحانه وتعالى، وتجده صبورًا في الشَّدائد، ثابتًا عند البلايا، والمرء إذا عوَّد نفسه على مراقبة الله تعالى عند كلِّ عمل عمله، موقنًا أنَّ الله تعالى مطَّلعٌ على جميع أعمال العباد، ومعتقدًا أنَّه تعالى يجازي من أطاعه برضوانه وإحسانه، وأنَّه يُنزِل غضبَه ومقتَه على من خالفه وعصاه؛ فإذا عوَّد نفسه على ذلك سهُل عليه أن يفعل ما أمره الله به، ويجتنب ما نهاه الله عنه، ويترك المنكرات، ويسارع إلى الخيرات، فتصير الاستقامة له عادة، ينتقل بها من وهدة الشَّقاء إلى ذروة العزِّ والسَّعادة والهناء، يخرج بها من الظُّلمات إلى النُّور؛ لأنَّ الاستقامة هي امتثال كلِّ مأمور واجتناب كلِّ منهيٍّ.

والمستقيم منزلته عظيمةٌ رفيعةٌ؛ فهو الآمن حيث يفزع النَّاس، وينال الدَّرجات العلى في الجنَّة، بل ويخلَّد فيها، وهذا جزاء ما قدَّم من صنوف البرِّ، وأنواع الحسنات العلميَّة والعمليَّة، والمآثر النَّافعة يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

والاستقامة لها أثر عظيم في صلاح الفرد والمجتمع، فالمستقيم إذا كان حاكمًا صلحت رعيَّتُه، وإذا كان مدرِّسًا فلح على يديه تلامذته، وإذا كان صنَّاعًا تقدَّمت صناعته ونجحت، وإذا كان تاجرًا ربحت تجارته، وبارك الله له فيها، وإذا كان زارعًا كثر خيره، ونما زرعه، وبورك له في عمل يده، وإذا كان ربَّ أسرة استقام أهلُه، وصلَح ذريَّتُه، ولا ريب أنَّه متى استقام الأفراد، وصلَح حالُهم؛ استقامت الأسر، ومتى استقامت الأسر استقامت الأمَّة بأسرها، وغنيٌّ عن البيان أنَّ كلَّ أمَّة يكون حظُّها من الرُّقيِّ والسَّعادة على قدر حظِّ أفرادها من الاستقامة، وسلوك المنهج القويم، والسَّير على الصِّراط المستقيم.

قال القرطبي في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ

(6) «طريق الهجرتين» (ص71).

﴿مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: «الخطاب للنَّبيِّ ﷺ ولغيره، وقيل: له والمراد أمَّته، قاله السُّدِّي، وقيل: استقم: اطلب الإقامة على الدِّين من الله واسأله ذلك فتكون السِّين سين السُّؤال كما تقول: أستغفر الله: أطلب الغفران منه، والاستقامة: الاستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشِّمال، أي: فاستقم على امتثال أمر الله،... ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾: أي استقم أنت وهم، يريد أصحابه الَّذي تابوا من الشِّرك ومن بعده ممَّن اتَّبعه من أمَّته، قال ابن عبَّاس: «ما نزل على رسول الله آية هي أشدّ ولا أشقّ من هذه الآية عليه»، ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له: لقد أسرع إليك الشَّيب؟ فقال: «شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا»،... ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ﴾، نهى عن الطُّغيان، والطُّغيان مجاوزة الحدِّ،... وقيل: أي لا تتجبَّروا على أحد» اهـ[7].

وقال ابن عطيَّة: «أَمْرُ النَّبيِّ ﷺ بالاستقامة وهو عليها؛ إنَّما هو أمر بالدَّوام والثَّبات، وهذا كما تأمر إنسانًا بالمشي والأكل ونحوه وهو متلبِّس به، والخطاب في هذه الآية للنَّبيِّ - عليه الصَّلاة والسَّلام - وأصحابه الَّذين تابوا من الكفر، ولسائر أمَّته بالمعنى»[8].

وذكر السُّيوطي في «الدُّرِّ المنثور» (3/636 - 637) عن ابن أبي حاتم وأبي الشَّيخ عن الحسن قال: لمَّا نزلت هذه الآية: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾، قال: شمِّروا شمِّروا، فما رئي ضاحكًا، وروى الدَّارمي أبو محمَّد في «مسنده» (141) عن عثمان بن حاضر الأزدي قال: «دخلت على ابن عبَّاس فقلت: أوصني! فقال: نعم! عليك بتقوى الله والاستقامة، اتَّبع ولا تبتدع».

فظهر من جميع الأقوال المتقدِّمة أنَّ الاستقامة مأمور بها، وأصحابه مأمورون، وأمَّته كذلك مأمورة بها حتَّى يرث الله الأرض ومن عليها.

□ وممَّا حوته سورة هود قصَّة نبيِّ الله نوح - عليه وعلى نبيِّنا الصَّلاة والسَّلام -، ودعوته لقومه، فإنَّ نبيَّ الله نوحًا قد رسم للدُّعاة منهجًا حكيمًا في دعوته يسيرون عليه، فقد اشتُهر بالصَّبر على الدَّعوة، وتحمُّل الأذى فيها، والنُّصح لقومه، ولين الجانب معهم، وهذا بعينه هو ما يجب على الدُّعاة أن يقتفوه، ويتَّصفوا به، تأسِّيًا بهذا الرَّسول الكريم، كما سلك معهم الأساليب الحكيمة والموعظة الحسنة، إلى غير ذلك من أنواع دعوته المتنوِّعة، وقد ذُكرت قصَّته في القرآن الكريم في عشر سور منه، مطوَّلةً مبسوطةً في بعضها ومختصرة في بعض، فقد ذُكرت في سورة الأعراف، وفي يونس، وفي هود، وفي الأنبياء، وفي قد أفلح المؤمنون، وفي الفرقان، وفي الشُّعراء، وفي العنكبوت، وفي الصَّافَّات، وفي نوح، وهذا إنَّما هو للاعتبار بقصَّته والاتِّعاظ منها، واتِّخاذ منهجه في الدَّعوة منهجًا متَّبعًا لمن يأتي بعده من الدُّعاة.

إنَّ منهج نوح عليه السلام؛ هو المنهج العامُّ للرُّسل في دعوتهم، وذلك المنهج هو الدَّعوة إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، ونبذ عامَّة الشُّركاء، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، فما من نبيٍّ بعثه الله إلاَّ دعا النَّاس لعبادة الله وحده، فهو أوَّل رسول بُعث إلى أهل الأرض بعد أن دخلها الشِّرك، وذلك أنَّ النَّاس كانوا من لدن آدم إلى نوح على الحقِّ لا يوجد في الأرض شرك، بل كانوا أمَّة واحدة كما قال الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ﴾، روى الحاكم في «المستدرك» بسنده إلى ابن عبَّاس قال: «كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلّهم على شريعة من الحقِّ، فاختلفوا فبعث الله النَّبيِّين مبشِّرين ومنذرين، قال: وكذلك في قراءة عبد الله: كان النَّاس أمَّة واحدة فاختلفوا»، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرِّجاه»، وأقرَّه الذَّهبيُّ في «التَّلخيص»[9].

فنوح أعطاه الله طول الباع، ومنحه درجة من الصَّبر عظيمة، فقد لبث ألف سنة إلاَّ خمسين عامًا؛ يدعو قومه ليلاً ونهارًا، سرًّا وعلانية، ومع ذلك لم يزدادوا إلاَّ فرارًا عن الحقِّ، وإعراضًا عنه، وتكذيبًا له، ولم يؤمن به طول هذه المدَّة إلاَّ القليل، هذا مع ما يلاقيه في تلك المدَّة من أنواع الأذى كالسُّخرية والاستهزاء به وبمن آمن به، فينبغي لكلِّ داعية مخلص أن يتأسَّى بهذا النَّبيِّ في صبره على الدَّعوة إلى الله، وعدم الضَّجر، ولا ينبغي أن يستكثر المدَّة الَّتي يقضيها وهو يدعو إلى الله إذا لم يَستجبْ له إلاَّ القليل، وحتَّى وإنْ لم يستجبْ له أحدٌ؛ فليحتسبْ، وليعلمْ أنَّه فعَل ما في وُسعه، وخرج من عهدة الأمر المتوجِّه إليه في قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، وفي قوله ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»[10][11].

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

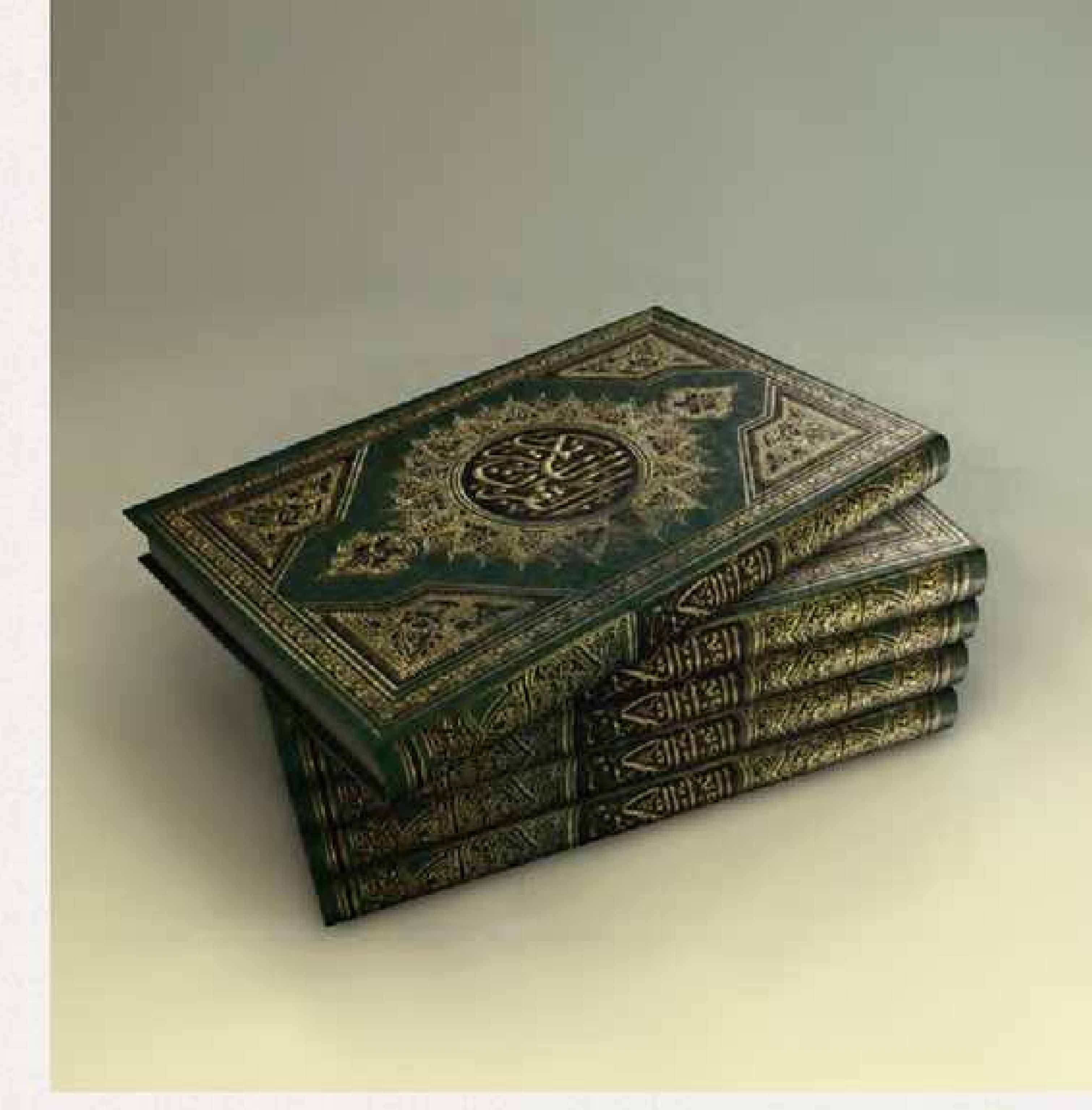
(7) «تفسير القرطبي» (11/224).

(8) «المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» (7/414).

(9) «المستدرك» (2/546 - 547).

(10) رواه البخاري (3461).

(11) انظر بحثًا بعنوان: «من محتويات سورة هود على الدَّعوة إلى الله» في مجلَّة أمِّ القرى.



حق الله على العباد

أ.د. عبد الرحمن محيي الدين
رئيس قسم فقه السنة بالجامعة الإسلامية المدينة النبوية سابقا

إنَّ معرفة حقِّ الله على العباد واجبٌ على كلِّ إنسان عاقل في هذه الحياة الَّتي نحياها، حيث لا خلاف بين جميع العقلاء أنَّ هذا الكون بسمائه وأرضه ومن فيهما وما بينهما مُلْكٌ لله الواحد القهَّار، أنشأه وهيَّأه ونظَّمه وأبدعه لحياة العباد بحكمة عظيمة دالَّة على عظمته - جلَّ وعلا -، ولَمْ يُشرك في ذلك أحدًا سبحانه، قال تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [سُورَةُ الكَهْفِ]، فهو لا يحتاج لذلك؛ لغناه - جلَّ وعلا - عن ذلك، فهو الحيُّ القيُّوم الَّذي لا تأخذه سنةٌ ولا نوم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [سُورَةُ قٓ]، فالخَلْقُ كلُّهم مفتقرون إليه - سبحانه -، وهو الغنيُّ عنهم، وهو الواحد الأحد، الصَّمد الَّذي لم يلد ولم يُولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

خلقهم ورزقهم لِتَسِيرَ بهم الحياة إلى أجل مسمًّى هم بالغوه، خلقهم حنفاء كلَّهم: «خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ»، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سُورَةُ الرُّومِ]، «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ»، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [سُورَةُ الانْفِطَارِ].

فالإنسان مخلوقٌ، وخالقه وموجده ومصوِّره هو الله - تبارك وتعالى -، فتبارك الله أحسن الخالقين.

خلقه وصوَّره، ولم يخلقه عبثًا، ولم يتركه هملاً: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [سُورَةُ المُؤْمِنُونَ].

فأرسل الرُّسل وأنزل الكتب ليحرِّر العباد من عبادة العباد إلى عبوديَّته وحده لا شريك له، حيث إنَّه لا شريك معه في خلقه؛ فلذلك لا شريك له في عبادته.

كرَّم الإنسانَ حيث خلقه بيديه وأسجد له ملائكته: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإِسْرَاءِ: 70]، وأنعم عليه بالعقل، ورفع من شأنه؛ فحرَّره وحرَّم عليه الخرافات والبدع والضَّلالات والدَّجل والشَّعوذة والسِّحر والخمور والمخدِّرات وكلَّ ما يضرُّ بعقله.

أنار له الطَّريق في هذه الحياة، وذلك بالإيمان والعمل الصَّالح الَّذي يزكِّي روحه وقلبه، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ]، فالعمل الصَّالح مع الإيمان، ولا يكون صالحًا إلاَّ بشرطين: الإخلاص والمتابعة.

عُلِمَ من ذلك أنَّ لله حقًّا على عباده وَجَبَ عليهم أن يوفُّوه إيَّاه جزاءَ إكرامه لهم وإنعامه وإفضاله عليهم، وهذا الحقُّ هو أوجب الواجبات على كلِّ عاقل في هذه الحياة، وسيحاسب الله العبادَ على ذلك، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ].

فعهده وحقُّه على عباده هو أن يعبدوه وحده ولا يشركوا به أحدًا، ولا يشركوا معه أحدًا، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النِّسَاءِ: 36]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [سُورَةُ الذَّارِيَاتِ]، أي يفردوني بالعبادة، وكذا معنى الحديث الشَّريف كما في

التوحيد الخالص

«الصَّحيحين»، حديث معاذ رضي الله عنه المشهور: «حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»[1]، وقد ورد أنَّ الصَّلاة تأتي يوم القيامة، وكذا تأتي الصَّدقة، ويأتي الصِّيام، ويأتي الإسلام، وهو استسلام القلب والجوارح واللِّسان، فبه يحاسب الله العبدَ، وفيه أنَّ الله يقول: «بك آخذ وبك أعطي»[2]، فبقدر صحَّة إسلام العبد يكون حسابه وجزاؤه، والله أعلم.

والعبادة لله وحده هي الَّتي قامت عليها السَّموات والأرض، وتميَّز العباد، فمنهم مؤمن ومنهم كافر؛ فمن أحبَّ العبادة ورضيَها وأدَّاها كما يحبُّ الله فذلكم المؤمن، ومن استكبر وأعرض ولم يرضَها فذلكم هو الكافر.

وأعظم المستكبرين هو الشَّيطان ثمَّ من تبعه وسار معه في طريق الغواية من الجنِّ والإنس، كفرعون وهامان وجنودهما، ومن حذا حذوهما إلى يوم الدِّين.

إنَّ العبادة لله وحده هي الَّتي بعث الله بها جميع الرُّسل من نوح إلى آخرهم، وأفضلهم محمَّد ـ صلَّى الله عليهم وسلَّم تسليمًا كثيرًا ـ: وهي استسلامهم لله وانقيادهم له محبَّة وتعظيمًا.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الأنبياء].

وتوحيد الألوهيَّة هو توحيد العبادة، وهو الغاية العظمى الَّتي خُلِقَ الخلقُ لأجلها، والَّتي يسعى لها المؤمن صادق الإيمان في هذه الحياة، ولأجله قامت سوق الحياة، وافترق العباد في ذلك ففريق في الجنَّة وفريق في السَّعير، فمن حقَّق العبادة وأفرد الله بذلك فهو في الجنَّة، ومن أخلَّ بالعبادة وجعلها لغير الله أو جعل بعضها لله وبعضها لغيره فهو في السَّعير، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: 48]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [سورة المائدة]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [سورة الأحقاف]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [سورة المؤمنون]، يريد الله من العباد التَّوحيد الخالص، قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: 3]، وورد في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[3].

فكلمة التَّوحيد هي أعظم كلمة يقولها العبد وهي كلمة «لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له»، وتحقيقها سعادة الدُّنيا والآخرة، وهي الَّتي كان ﷺ يطلبها من كفَّار قريش، فتأباها وترفضها، وورد أنَّه كان يقول لهم: «أَسْأَلُكُمْ أَنْ تُجِيبُونِي إِلَى وَاحِدَةٍ تَدِينُ لَكُمْ بِهَا العَرَبُ وَتُعْطِيكُمْ بِهَا الخَرَاجَ العَجَمُ»، فقالوا: أجعل الآلهة إلهًا واحدًا! [4].

إنَّها الكلمة العظمى في الحياة، وهي سبيل النَّجاة بعد الممات، وهي التَّوحيد الخالص.

ورسول الله ﷺ صادقٌ في قوله، وملَّك الله بها المسلمين العرب ودانت لهم بها العجم، فما حال المسلمين الآن في عدم قدرتهم حتَّى في حكمهم أنفسهم فضلاً عن أن يحكموا غيرهم؟ لا يرجع ذلك إلاَّ إلى أمر واحد هو عدم صدقهم في قولهم لهذه الكلمة العظيمة وضعفها في قلوبهم ونفوسهم، فضَعُف التَّوحيد لذلك، قال تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: 8]، وقال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة فصلت].

والعبادة اسم جامع لكلِّ ما يحبُّه الله ـ تبارك وتعالى ـ ويرضاه من الأقوال والأعمال الظَّاهرة والباطنة كالخوف والمحبَّة والرَّجاء والتَّوكُّل والرَّغبة والرَّهبة والإنابة والدُّعاء، وكذا الذَّبح والنَّذر والطَّواف والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة وغير ذلك ممَّا هو مفصَّل في كتب التَّوحيد، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [سورة الأنعام]، فهذه الآية وغيرها ظاهرة في عمل المشركين في ذبحهم ونذرهم لغير الله فيما أخرجه الله لهم من الزُّروع والثِّمار والأنعام حيث جعلوا بعضها لله وجعلوا بعضها لشركائهم فوبَّخهم الله بقوله: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

إذن فالعبادة تشمل جميع أعمال العباد في هذه الحياة من الذَّبح وغير ذلك، ومنها التَّحليل والتَّحريم والبيع والشِّراء والأخذ والعطاء وسنّ القوانين والتَّشريعات لا ما سنَّ البشر في ذلك للعباد من القوانين والأنظمة المخالفة لشرع الله والحكم بين العباد، فمن فعل ذلك وشرع لعباد الله فهو مضادٌّ لله في

(1) البخاري (2856) ومسلم (30).
(2) أحمد (8742) وأبو يعلى (6231) وفي إسناده لين.
(3) مسلم (2985).
(4) انظر: «سنن التِّرمذي» (3232).

حكمه وشرعه، فهو طاغوت كطواغيت اليهود والنَّصارى، قال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة التوبة].

وهذه الآية وإن كانت نازلة في اليهود والنَّصارى فهي كذلك في المؤمنين ممَّن يعمل بمثل عملهم.

وكذا من رفع عبدًا من العباد وغالى فيه فأحلَّ ما أحلَّ وحرَّم ما حرَّم، فقد جعله لله ندًّا، وعبده من دون الله، فقد ورد في «مسند الإمام أحمد» رحمه الله و«سنن أبي عيسى» وتفسير ابن جرير، حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه قوله أنَّه لمَّا بلغته دعوة النَّبيِّ المصطفى ﷺ فرَّ إلى الشَّام وكان قد تنصَّر في الجاهليَّة فأسرت أخته وجماعة من قومه خيل رسول الله ﷺ ثمَّ منَّ الرَّسول ﷺ عليها وأعطاها فرجعت إلى أخيها فرغَّبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عدي المدينة وكان رئيس قومه طي وأبوه حاتم الطَّائي المشهور بالكرم، فتحدَّث النَّاس بقدومه فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنقه صليب من فضَّة، فقرأ ﷺ هذه الآية: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾، قال: قلت: إنَّهم لم يكونوا يعبدونهم، فقال: «بَلَى، فَإِنَّهُمْ حَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الحَلاَلَ وَأَحَلُّوا لَهُمُ الحَرَامَ فَتَبِعُوهُمْ فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ».

قلت: والحديث قد حسَّنه الألباني (2471)، وانظر: «تحفة الأحوذي» (498/8).

فدلَّ على أنَّ عبادة الله - جلَّ وعلا - تكون قولاً وعملاً واعتقادًا، فاعتقاد الحلال حراما والحرام حلالا وإن لم يعمل بذلك فهو عبادة؛ لذا يجب أن تكون العبادة كلّها خالصة لله تعالى، وذلك حقُّ الله على العباد، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [سورة البينة]، وأنَّ من أطاع مخلوقًا كائنًا من كان في تحليل الحرام وتحريم الحلال فقد اتَّخذه إلهًا معبودًا من دون الله؛ لأنَّه صرف العبادة لغير الله.

والعبادة أصلها التَّذلُّل والخضوع، يقول الإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله: «العبادة في اللغة من الذِّلَّة، يقال: طريق معبَّد وبعير معبَّد أي مذلَّل، وفي الشَّرع عبارة عمَّا يجمع كمال المحبَّة والخضوع والخوف». [«تفسير ابن كثير» (26/1)]

ويقول الإمام ابن القيِّم رحمه الله: «ورحى العبوديَّة تدور على خمس عشرة قاعدة من كمَّلها كمل مراتب العبوديَّة، وبيانها أنَّ العبوديَّة منقسمة على القلب واللِّسان والجوارح، وعلى كلٍّ منها عبوديَّة تخصُّه، والأحكام الَّتي للعبوديَّة خمسة: واجب ومستحبٌّ وحرام ومكروه ومباح، وهي لكلٍّ واحد من القلب واللِّسان والجوارح» [«مدارج السَّالكين» (109/1)].

قلت: فجماع أمر العبوديَّة هي الطَّاعة محبَّةً وخوفًا ورجاءً، أي طاعة الله - عزَّ وجلَّ - بفعل أوامره محبَّةً وخوفًا ورجاءً وترك نواهيه محبَّةً وخوفًا ورجاءً.

إذًا؛ فالعبادة حقٌّ لله - جلَّ وعلا -؛ لأنَّه الخالق الرَّازق المحيي المميت الحيّ القيُّوم العزيز الجبَّار، فهو المستحقُّ حقًّا أن يُعبد ولا يُعبد معه أحدٌ، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة البقرة].

فهذه الآيات فيها بيان لوحدانيَّة الله وألوهيَّته حيث إنَّه المنعم على عباده بإخراجهم من العدم إلى الوجود ثمَّ كذلك إسباغه عليهم نعمه الظَّاهرة والباطنة، حيث جعل لهم الأرض فراشًا أي مفروشة غير مضطربة لا يصلح الانتفاع بها، حيث بسطها وجعل فيها رواسي تثبتها والسَّماء سقفًا محفوظًا وهي آية عظيمة من آياته - جلَّ وعلا - الدَّالَّة على وحدانيَّته وعظمته، ثمَّ كذلك امتنَّ عليهم بأنَّه أنزل من السَّماء - وهو السَّحاب المسخَّر بين السَّماء والأرض - أنزل منه ماءً عذبًا لسقياهم هم وأنعامهم، وكذلك أخرج لهم من الأرض أنواع الزُّروع والثِّمار متاعًا لهم ليشكروه على ذلك ولا يكفروه ويعبدوه وحده؛ لأنَّه هو وحده المستحقُّ للعبادة.

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: «ومضمونه أنَّه الخالق الرَّازق، مالك الدَّار وساكنيها ورازقهم، فبهذا يستحقُّ أن يعبدوه وحده ولا يشرك به غيره، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾، وفي «الصَّحيحين» عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! أيُّ الذَّنب أعظم عند الله؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» [«تفسير ابن كثير» (194/1)].

والآيات في هذا الباب أكثر من أن تُحصى حتَّى قال القائل:

وفي كلِّ شيء له آية تدلُّ على أنَّه واحد

قلت: تدلُّ على أنَّه الواحد الأحد الصَّمد الَّذي يجب أن يعبد وحده لا شريك له.

والله أعلم، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه.

أثر النزعة الظاهرية في منهج ابن حزم الحديثي

حمزة بوروبة
مرحلة الدكتوراه في علوم الحديث ـ جامعة باتنة

إنَّ العلاَّمة أبا محمَّد علي بن أحمد بن حزم مَعْلَمةٌ علميَّة عالية، حافظٌ مُدهشٌ، مع الدِّقة والفهم والتَّفنُّن في سائر العلوم، شهد له بذلك الموافق والمخالف، إلاَّ أنَّه تفرَّد عن بقيَّة العُلماء بمسائل خالفَهم فيها في مختلَف علوم الشَّريعة وفنونها المشرفة، سواء كانَ ذلك في الفقه والأصُول أو في أصول الدِّين أو في علوم الحديث، على أنَّ الأصول التي بنَى عليها مذهبَه واحدة، يأخُذ بعضُها بأعناق بعض.

والَّذي نخصُّه بالبحث هو علوم الحديث، حيث إنَّ ابن حزم خالَف جماهير المحدِّثين في مسائل عديدة، وذلك لأسباب متعدِّدة لعلَّ أهمَّها القول بالظَّاهر.

فهو من العُلماء الَّذين سلَكوا في تفقُّههم مسلَك أهل الظَّاهر، وهُو ترك النَّظر في المعاني والمناسَبات مطلَقًا، بما يُظنُّ في ذلك أنَّه ظاهر النَّص، ممَّا أدَّى به إلى الوقوع كمَا ـ قال العُلماء ـ في شذوذات كثيرة خالَف فيها الأئمَّة، فجاء بأعاجيب مع سَعة علمه وحفظه ودقَّة ذكائه.

وسأذكُر في هذه العجالة مجمل ما أثَّرت الظَّاهرية أو القول بالظَّاهر في منهج ابن حزم الحديثي بإشارات سَريعات وتَنبيهات لطيفات، وذلك بذكر لأصول المسائل دون الخَوض في التَّفاصيل ـ غالبًا ـ تنبيها بالأصل على الفَرع، ومُراعيا في ذلك مقتضى الحال، ولستُ مُدَّعيا الكمال في ذلكَ، فما هي إلاَّ خطوة متواضعة في حلقة بحث واسعة الجوانب عميقة الأغوار، وممَّا يدلُّك على ذلك اختلافُ نظرة الباحثين في المسألة الواحدة في علوم الحديث عند ابن حزم، إذ كلُّ مَن أدلى بدلوه لم يسلم مِن معتَرض، وسببه دقَّة كلام هذا العلَم الهمام مع ما يتوهَّمه الباحث أحيانا من التَّناقض في كلام ابن حزم، فيخرج كلُّ واحد منهم بنتيجته بناء على فهمه الخاص.

لا بأسَ أن نُذكِّر أنَّ الفقه الظَّاهري بمختلف صوره قائم على أربَعة أصول، وهي: الكتاب والسُّنَّة النَّبويَّة والإجماع والدَّليل، والحكم فيها يكون بلزوم ظواهرها، وقَد نصَّ ابنُ حزم على ذلك بقوله: «ثمَّ بيَّنا أقسامَ الأصول الَّتي لا يُعرف شيءٌ من الشَّرائع إلاَّ بها وأنَّها أربعة، وهي: نصُّ القُرآن، ونصُّ كلام رسول الله ﷺ الَّذي إنَّما هُو عن الله تعالى ممَّا صحَّ عنه ﷺ نقل الثِّقات أو التَّواتر، وإجماع جميع علماء الأمَّة، أو دليل منها لا يحتَمل إلاَّ وجهًا واحدًا»[1].

وقَد ذكر ابن حزم نفسُه أنَّ هذه الأصول الأربعة راجعة إلى النَّصِّ حقيقة، ثمَّ إنَّه أبطل الأصولَ الأخرى الَّتي اعتمدها أهلُ المذاهب الأخرى كالقياس والاستحسان، وسدِّ الذَّرائع وغيرها، أبطلها جميعًا، وخاصَّةً القياس الَّذي بالغ ابنُ حزم في إنكاره وإبطاله حيث إنَّه عقد لذلك فصلاً كاملاً في كتابه «الإحكام»، وليس هذا موضع التَّفصيل والبيان، وهذا المنهج الَّذي سلكه تأصيلاً وتفريعًا جعل كثيرًا من أهل العلم بالحديث ينتقدونَه، بل ونُسب بسبب ذلك إلى الشُّذوذ.

إنَّ النَّظرة الظَّاهريَّة تغلغلت في منهج ابن حزم الحديثي

(1) ابن حزم، «الإحكام» (71/1) ـ أحمد شاكر.

حتَّى بلغت علم الرِّجال والجرح والتَّعديل، توثيقًا وتضعيفًا وتجهيلاً وتعريفًا، نتج عن ذلك كلِّه أن قعَّد رَحِمَهُ اللهُ قواعد في علوم الحديث لم يسبقه أحدٌ إليها، بل هي خاصَّةٌ به، ومن أهمِّ تلك القواعد والمسائل الَّتي ظهرت فيها ظاهريَّته في علوم الحديث والرِّجال، ما يلي:

أوَّلا: إنَّ الرِّجال عند ابن حزم على درجتين فقط، إمَّا «الثِّقـة»، وإمَّا «الضَّعيف»، وحديثُ الثِّقة عنده «في غاية الصِّحَّة»، وحديثُ الضَّعيف عنده «في غاية السُّقوط»، وكان من نتائج هذا المنهج هو أنَّ الرَّاوي الثِّقة لا يخطئ أبدًا، كما أنَّ الرَّاوي الضَّعيف «لا يحفظ أبدًا».

وكان من نتائجه ترك النَّظر في دقائق العلل والتَّرجيح بينَ روايات الحفَّاظ والثِّقات، وقَد صرَّح بتخطئة القياسيِّين في كتابه «الإحكام»، بل إنَّه خطَّأ جماهير المحدِّثين وأئمَّة العلل في ترجيحاتهم بالأوثق والأحفَظ والأكثر.

وكانَ من نتائجه أنَّه لا وجود للحَديث الشَّاذِّ عند ابن حزم أو المعلِّ وَفق نظر المحدِّثين، كيفَ لا ومنهجه هذا في «الرَّاوي الثِّقة» الَّذي يقولُ فيه ابنُ حَزم: إنَّه لا يخطئ، بل وجعل دعوى الخطأ في خبر الثِّقة لا يجوز إلاَّ بأحَد ثلاثة أمور[2]:

الأمر الأوَّل: اعتراف الرَّاوي بخطئه.

الأمر الثَّاني: شهادة عدل على أنَّه سمع الخَبر مع راويه، فوهم فيه فلان.

الأمر الثَّالث: أن توجب المشاهدة بأنَّه أخطأ.

قال ابنُ حزم: «ولكنَّا نلتفتُ إلى دعوى الخَطأ في رواية الثِّقة إلاَّ ببيان لا يُشكُّ فيه»[3].

وهذه الأمور الَّتي ذكرها ابنُ حزم الَّتي توجبُ خطأَ هذا الرَّاوي الثِّقة، كلُّها راجعة إلى ظاهر الأمر، ولو أرادَ محدِّثٌ أن يطبِّقها لما استَطاع؛ لأنَّها ليسَت خاصَّة بالنَّقد الدَّاخلي، فهو بهذه النَّظرة الظَّاهرية خالفَ المحدِّثين في كثير من أحكامهم وقواعِدهم.

□□□

(2) «الإحكام» (137/1).
(3) «المحلَّى» (242/3) - أحمد شاكر.

ثانيًا: أنَّ الحَديث الصَّحيح عند ابن حزم هو: «الحَديث المسنَد الَّذي يتَّصل سنده بنقل العَدل الضَّابط عن مثله إلى منتهاه» فقَط، ونفي الشُّذوذ والعلَّة القادحة الخفيَّة غير وارد هنا لما ذكرنَاه عنه، وهذَا منهجه غالبًا، ولكنَّه أحيانًا يجري على سَنَن المحدِّثين في التَّعليل، وإعلاله للحديث يكون بما ظهر وما خفي كمَا هو مُبيَّن في مواضعِه.

□□□

ثالثًا: ترك الاعتبار بالحَديث الضَّعيف «مطلقًا»، حتَّى ولو كان مختلفًا فيه، حيث إنَّ ابنَ حزم يعتَبر حديث الضَّعيف في غاية السُّقوط، وأن الرَّاوي الضَّعيف عنده بأيِّ نوع من أنواع الضَّعف لا يقبل حديثه أبدًا، كما هُو مُوضَّح في بابه، فهُو يرى بأن حديث الضَّعيف حديث باطل غير صحيح، ولا يرتقي إلى الحسن أبدًا ولو جاء من ألف طريق، ولا يُقيم وزنًا لمتابع أو شاهد، حتَّى إنَّ بعضَ الأحاديث الَّتي ضعَّفها أصولها في «الصَّحيحين» وغيرهما، فهو بطريقته هذه لم يقبل كثيرًا من الأحاديث الَّتي هي مِن هذا القَبيل.

ويكفي أن ننظُر مثلاً في قوله عن إسناد فيه: «أبو بكر ابن عيَّاش، وعبد الملك بن أبي سُليمان، وزُهير بن محمَّد». وهؤلاء مخرج لهم في «الصَّحيحين».: «وهؤلاء ثلاث الأثافي والدِّيار البَلاقع أحدهم كانَ يكفي في سُقوط الحَديث»[4]؛ ووصَفهم في مواضع أخرى بأوصاف الجَرح الَّتي تدلُّ على سقُوطهم، كقَوله: «ساقط»، «متروك» ونحوها؟!

وكذلكَ من الأمثلة على ذلك:

- «طلحة بن يحيى الأنصاري» أخرج له البُخاري ومسلم، قال فيه: «ضعيف جدًّا»[5].

- «طَلق بن غَنَّام النَّخعي» أخرجه له البخاري وأصحاب «السُّنن» الأربعة، قال فيه ابنُ حزم: «ضعيف»[6].

وغيرها من الأمثلة الَّتي تبيِّن أنَّ ابنَ حزم منهجه في الرَّاوي الضَّعيف عنده، هو ترك حديثه مطلقًا وعدم الاعتداد به، ولو كانَ ضعفُه يسيرًا من جهة حفظه، وأنَّه لا وجودَ للمتابعات والشَّواهد عنده الَّتي تبيِّن أنَّ هذا الحَديثَ له أصل معين.

□□□

(4) «المحلَّى» (165/9).
(5) «المحلى» (249/6).
(6) «المحلى» (227/6).

رابعًا: التَّدليس وزيادة الثِّقة عند ابن حزم مبنيٌّ على قاعدته «أنَّ الرَّاويَ الثِّقة لا يُخطئ أبدًا، وأنَّ الضَّعيف متروك حديثه مطلقًا»، فهو عنده تدليسُ الثِّقة وتدليس الضَّعيف، فتدليس الثِّقة عندَه مقبول ولو عنعن ولم يصرِّح بالسَّماع جريًا على أنَّ خَبر الثِّقة مقبولٌ مطلقًا ولو خالفَ أو دلَّس ونحو ذلك.

وتدليس الرُّواة الضُّعفاء مردودٌ عنده مطلقًا، بل ذلك جرحٌ فيهم، وعليه تُردُّ جميعُ رواياتهم ولا يقبَلُهم صرَّحوا بالسَّماع أو لم يصرِّحوا، المهم ما دام أنَّهم ضعفاء فهُم في حيِّز المردودين،ولم يجْرِ على سَنن المحدِّثين في هذه المسألة إلاَّ مع راوٍ واحد، وهو أبو الزُّبير المكِّي؛ لأنَّه صرَّح هو بذلك، بل ولاضطرابه في هذه المسألة نُسبَ إلى التَّناقض[7].

ومثله زيادةُ الثِّقة فهي مقبولةٌ عنده مطلقًا، بناءً على مذهبه في الثِّقة، فخَبره مقبولٌ مطلقًا ولو خالفَ غيره من الحفَّاظ بزيادة تُنافي روايتهم، كما أنَّه يحاول قَدر المستَطاع أن يجمَع بينَها وبين الرِّواية الأخرى، دونَ أن يطرح الرِّواية الشَّاذة إلاَّ نادرًا؛ لأنَّ نفي الشُّذوذ غير واردٍ عنده.

□□□

خامسًا: وكان من نتائج النَّظرة الظَّاهريَّة عند ابن حزم في علوم الحديث والرِّجال أنَّه لا يعتبر قول الصَّحابي: «أُمرنا أو نُهينا» من قَبيل المرفوع، فهُو لا يعدُّ القَول منسوبًا إلى النَّبيِّ ﷺ إلاَّ إذا قال الصَّحابي: قال النَّبيُّ ﷺ أو نحو ذلكَ، فلا بدَّ من التَّصريح؛ لأنَّه يَرى أنَّ قولَ الصَّحابي هذَا قَد يكونُ اجتهادًا منه هو، وهذا احتمالٌ وإذا دخَل الاحتمال بَطل أن يكونَ هذا مسندًا إلى النَّبيِّ ﷺ، كمَا أنَّ قولَ الصَّحابي عند ابن حَزم أصلاً لا يحتَجُّ به[8]، ولازم هذَا المذهَب هو عدم قَبول كثير من أحاديث النَّبيِّ ﷺ الَّتي جاءت على هذا النَّحو، وتَعطيل كثير من الأدلَّة الشَّرعيَّة الَّتي تعدُّ أدلَّة مستقلَّة في حدِّ ذاتِها.

□□□

هذَا إذن مجمَل ما أثرت فيه الظَّاهريَّة أو القَول بالظَّاهر في منهج ابن حزم الحَديثي، وفي حكمه على الرِّجال في مسائل الجَرح والتَّعديل.

والملحَظ المهم في هذَا هُو أنَّ ابنَ حزم له منهجُه الخاصُّ في علوم الحَديث وله مدرسةٌ مستقلَّةٌ في النَّقد، بسبب القَول بالظَّاهر مع الاستقلاليَّة في الفَهم.

ويجدُر التَّنبيه إلى أنَّ ابنَ حزم تنظيره أحيانًا لا يكون متوافقًا مع تطبيقاته ممَّا سبَّب الخَلل في فَهم منهجِه الحَديثي من قبَل الباحثين، بل ناقَضَ ابنُ حزم نفسَه في بعض المسائل، والنَّظرة الظَّاهريَّة من أسباب ذلكَ، ولكنَّه من حيثُ الجُملة يحمل فكر المحدِّثين، بل وله معرفة بالحَديث الصَّحيح، وصدَقَ الذَّهبي لَّما قال: «ولي أنا ميلٌ إلى أبي محمَّد لمحبَّته في الحَديث الصَّحيح، ومعرفته به، وإن كنتُ لا أوافقُه في كثير ممَّا يقولُه في الرِّجال والعِلل والمسائل البشعة في الأصول والفُروع، وأقطَعُ بخطئه في غير ما مسألة، ولكن لا أكفِّرُه ولا أضَلِّله، وأرجو له العَفو والمسامَحة وللمُسلمين، وأخضَع لفَرط ذكائه وسَعَة علومه»[9] اهـ.

□□□

وأخيرًا لا بدَّ أن نقول: إنَّ ظاهريةَ ابن حَزم لم تكُن شرًّا محضًا، بقَدر ما كانت لها آثارٌ حميدةٌ شَهد بها المُنصفون من أصحاب الفكر الثَّاقب، والنَّظرة السَّويَّة، وأرباب الحِجا والعَدل والإنصاف، والمجال مفتوحٌ لكلِّ باحث منصف للتَّدقيق أكثر حول علوم الحَديث عند ابن حَزم فهو تُراث كبير يحتَاج إلى خِدمة.

□□□

(7) «السِّلسلة الضَّعيفة» للألباني (92/1).

(8) انظر: «الإحكام» لابن حزم (72/2)، و«ابن حزم» لأبي زهرة، (ص432 . 433)، «منهج ابن حزم في الاحتجاج بالسُّنَّة» لإسماعيل رفعت فوزي (ص200).

(9) «السير» (201/18).

مسائل منهجية

المسلمات الشرعية في زمن الفتن
بين يقين النصوص وسراب المحسوس

عباس ولد عمر

إمام خطيب ـ الجزائر

إنَّ لله ـ عزَّ وجلَّ ـ في خَلْقه شؤونًا عجيبة، وله ـ سبحانه ـ في أقداره أسرارًا لطيفة؛ يرفع ويخفض، يبسط ويقبض، يُعزُّ ويُذلُّ، يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممَّن يشاء، يُخرج الحيَّ من الميِّت ويُخرج الميِّت من الحيِّ، يُضلُّ من يشاء ويهدي إليه من أناب.

وممَّا قدَّره الله على عباده ـ وهو دالٌّ على حكمته ـ أن يبتليَهم بالسَّرَّاء والضَّرَّاء، والشِّدَّة والرَّخاء، والحسنات والسَّيِّئات، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [سُورَةُ العَنكبُوت].

ومن ذلك ما أصاب أهل الإسلام في هذه الأيَّام، من فتنة الخروج على الحكام، وتأجيج نار الثَّورات، مع ما صاحبها من مظاهرات واعتصامات.

وحكم هذا الأمر في شريعة الإسلام لا يخفى على من له مُسكة من علم بنصوصها، فالأحاديث الَّتي تأمر بالسَّمع والطَّاعة للحاكم المسلم في المعروف، وتنهى عن منازعته في الأمر والخروج عليه ـ ولو كان ظالمًا ـ أشهر من أن تُذكر، وأكثر من أن تُحصر، لكنَّ الَّذي جعل المصيبة تتعاظم، والبليَّة تتفاقم؛ أن وُجد من الدُّعاة والمشايخ المنتسبين إلى السُّنَّة من يدعو إلى ذلك ويحرِّض عليه، من غير حجَّة ولا برهان، ولا نور مقتبس من سنَّة أو قرآن، مخالفين بذلك تلك النُّصوص الكثيرة، متنكِّبين منهج السَّلف الصَّالح الَّذي غرُّوا النَّاس بالانتساب إليه دهرًا طويلاً.

ألا فليُعلم أنَّ ربَّنا قد بيَّن لنا في كتابه المنهج الشَّرعيَّ في التَّغيير، مَنْ سلكه جنى ثمراته، وأوصله إلى رضوان ربِّه وجنَّاته، ومن أعرض عنه ورضي بغيره، ممَّا يوحيه الشَّيطان إلى أوليائه، فلا يمكن أبدًا أن يصل إلى مراده، ولا أن يحقِّق مبتغاه وأهدافه.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرَّعد: 11].

وقال عزَّ من قائل: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٥٥ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝٥٦﴾ [سُورَةُ النُّور].

وقال جلَّ في علاه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ

﴿ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الحج].

وقال جلَّ ذكره: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [سورة الأعراف]، ثمَّ قال في ختام هذا السِّياق: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [سورة الأعراف].

فدلَّت هذه الآيات على أنَّ الاستخلاف في الأرض والتَّمكين؛ إنَّما يكون من الله لعباده الَّذين يتحقَّق فيهم شرطه؛ وهو: الإيمان الصَّادق، والعمل الصَّالح، مع اليقين بوعد الله، والصَّبر على أقداره.

قال الحسن البصريُّ: «والله لو أنَّ النَّاس إذا ابتُلوا من قبل سلطانهم صبروا؛ ما لبثوا أن يرفع الله ذلك عنهم، وذلك أنَّهم يفزعون إلى السَّيف فيُوكلوا إليه، ووالله ما جاءوا بيوم خير قطّ»، ثمَّ تلا: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾[1].

فمن رام إخراج الأمَّة من ديجورها الَّذي طال فيه سباتها؛ فليبدأ بنفسه فَلْيَنْهَهَا عَنْ غيِّها، وليجمِّلها بالإيمان بربِّها، والأعمال الَّتي بها فلاحها، ثمَّ ليَسْعَ بعد ذلك إلى تعميم هذا الخير بين النَّاس، بدعوتهم إليه، والصَّبر معهم لحملهم عليه، وهو منهج نبيِّنا ﷺ العمليّ في الدَّعوة والإصلاح؛ فإنَّه ربَّى أصحابه فردًا فردًا، ولم ينازع ملكًا في ملكه، ولا سلطانًا في حكمه، وقد أرشدنا إلى ذلك ربُّنا في كتابه في سورة وجيزة في ألفاظها وكلماتها، لكنَّها بليغة في عبرها وفوائدها، وهي سورة العصر، الَّتي قال الله فيها: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [سورة العصر]، فقوله: ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دليل على تكميل النَّفس، وقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ دليل على الدَّعوة إليه لتكميل الغير.

قال العلاَّمة ابن السَّعدي: «فبالأمرين الأوَّلين يكمِّل الإنسان نفسه، وبالأمرين الأخيرين يكمِّل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة يكون الإنسان قد سلم من الخسار، وفاز بالرِّبح العظيم»[2].

ولابدَّ لذلك من أمرين اثنين؛ بهما جاء النَّبيُّ المصطفى ﷺ هما: العلم والتَّزكية، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [سورة آل عمران].

فهذا هو المنهج الشَّرعيُّ في التَّغيير، ليس فيه روغان ولا دوران، فنحن الَّذي يهمُّنا أن نوحِّد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، ونلزم طاعته ونجتنب معصيته. وحسبنا أنَّنا قصدنا الخير وأتيناه من بابه، ولم تحرفنا الأهواء والفتن إلى بنيَّات الطَّريق وجنباته، ورحم الله مجدِّد هذا العصر الإمام الألباني الَّذي كان كثيرًا ما يقرِّر هذا المعنى، ويتمثَّل ببيتين من شعر امرئ القيس، يقول فيهما:

بَكى صَاحِبي لـمَّا رأى الدَّرْبَ دُونه ... وأيقـنَ أنـا لاحـقـانِ بقيصـرا

فَقُلْتُ لَـهُ: لا تَبْـكِ عَيْـنُـكَ إنَّـمَا ... نحـاولُ مُـلْـكًـا أوْ نُـمُـوتَ فَنُعْـذَرَا

فهذا هو السَّبيل، لمن رام إصلاح الحال والتَّبديل، أعلامه لائحة، ومناراته واضحة، ولكنَّه في نظر المستعجلين طريق طويل، إذ هو بتحقيق مقاصدهم غير جدير، فلذلك لا يصبرون على مكارهه وعقبات المسير.

والشَّيء الَّذي لا يكاد ينقضي منه العجب؛ أنَّ كثيرًا من أولئك الدُّعاة المشار إليهم ممَّن كان يظهر الانتساب للسَّلف، ويرفع شعار الدَّعوة إلى منهج أهل الحديث، كانوا قبل الَّذي حدث بزمان بعيد، وإلى عهد قريب، يحرِّمون المظاهرات، ويمنعون العمل السِّياسي ودخول البرلمانات، فإذا بالأحداث تتسارع، وضغط العوام عليهم يزداد في الشَّارع، فلم يصبر إخواننا على الثَّبات على مواقفهم، ورأوا أنَّ القوم سابقوهم لاقتسام غنيمة الثَّورة، والاستئثار بالمناصب والثَّروة، فقرَّروا أن ينهجوا معهم منهجًا ثوريًّا حركيًّا، ورضوا لأنفسهم بأن يسلكوا مسلكًا حزبيًّا سياسيًّا، فتحوَّلوا في وقت وجيز إلى دعاة خروج وتحريض، وأقحموا أنفسهم معترك السِّياسة والتَّحزُّب البغيض، والأغرب من هذا أنَّنا رأينا منهم من تغيَّر كلامه وتبدَّل خطابه في أقلّ من أسبوع، ينسلخ من جلده كما تنسلخ الحيَّة من جلدها. فما الَّذي تغيَّر؟! آلدِّين الَّذي أكمله الله ورضيه للنَّاس، أم هو الهوى وتزيين

(1) رواه الآجرِّي في «الشَّريعة» (62).

(2) «تيسير الكريم الرَّحمن» (ص893).

الشَّيطان الوسواس! قد غرَّ القوم أن رأوا ملكًا قريبًا، وآنسوا حكمًا وشيكًا، فسلكوا طريقًا غير الَّتي كانوا يعتقدون، وأصبحوا يعرفون ما كانوا ينكرون، وينكرون ما كانوا يعرفون، وهذه علامة السُّقوط في الفتنة لو كانوا يعقلون.

عن حذيفة رضي الله عنه قال: «إذا أحبَّ أحدكم أن يعلم أصابته الفتنة أم لا؛ فلينظر، فإن كان رأى حلالاً ما كان يراه حرامًا فقد أصابته الفتنة، وإن كان يرى حرامًا ما كان يراه حلالاً فقد أصابته»[3].

وعنه أيضًا قال: «إنَّ الضَّلالة حقّ الضَّلالة أن تعرف ما كنت تنكر، وتنكر ما كنت تعرف، وإيَّاك والتَّلوُّن في الدِّين؛ فإنَّ دين الله واحد»[4].

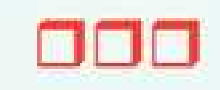
وقال إبراهيم النَّخعي: «كانوا يرون التَّلوُّن في الدِّين من شكِّ القلوب في الله»[5].

ومن جناية القوم على منهج السَّلف وقواعده أنَّهم ألصقوا به كلَّ هذه الانحرافات والخزايا، زورًا وبهتانًا، حتَّى أصبح بعض أهل السُّنَّة ممَّن لم تثبت على النَّهج قدمه، ولم يرسخ في العلم فهمه، يتساءل:

أصحيح تغيَّرت فتوى أهل العلم في هذا الشَّأن؟

فنقول:

إنَّ دين الله لا يتغيَّر، وإنَّ الفتوى لم تتبدَّل، ولكنَّها سنَّة الله فيمن حكَّم الهوى على نفسه أن يغيِّر ويبدِّل، وأن يكثر من التَّنقُّل: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [سورة الأحزاب].



(3) رواه نعيم بن حماد في «الفتن» (130)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (37332) والفسوي في «المعرفة والتَّاريخ» (391/2) والحاكم في «المستدرك» (8443) وأبو نعيم في «الحلية» (251/1) والدَّاني في «السُّنن الواردة» (26) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (258/34).

(4) رواه معمر بن راشد في «الجامع» (20454/ مع مصنَّف عبد الرَّزَّاق) ونعيم بن حمَّاد في «الفتن» (134) وابن بطَّة في «الإبانة الكبرى» (25) واللاَّلكائي في «أصول الاعتقاد» (120)، والبيهقي في «السُّنن الكبرى» (20389) و«الأسماء والصِّفات» (267)، وابن عبد البرِّ في «جامع بيان العلم» (1775)، والهروي في «ذمِّ الكلام» (640)، والأصبهاني في «الحجَّة» (329/1).

(5) رواه ابن بطَّة في «الإبانة الكبرى» (575).



فإن سأل سائل فقال:

ما سرُّ هذا التَّحوُّل عند هؤلاء الدُّعاة؟! لا سيما والعهد غير بعيد، وكلام القوم القديم لا يزال بأيدي النَّاس لا ينكره إلاَّ العنيد، وهو عليهم عند الخصام شهيد.

وجواب ذلك أن يقال: إنَّ لذلك التَّحوُّل جملة أسباب، منها ما قد ندركه ونتوصَّل إلى معرفته، ومنها ما لا يعلمه إلاَّ الله، وسيأتي اليوم الَّذي يجلِّيه فيه الرَّبُّ لعباده: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة الطارق]، و﴿ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ﴾ [يونس: 30].

ولكن أريد أن أنبِّه ههنا على ثلاثة أمور أراها ذات بال، تهمُّ كلَّ مؤمن سائر إلى ربِّه، حريص على أن يثبت على أمره، حتَّى لا تزيغ به الأهواء، ولا تميل به الآراء.

الأمر الأوَّل: قلَّة اليقين في النُّصوص الشَّرعيَّة، فبعض النَّاس قد يكون عنده إيمان بنصوص القرآن والسُّنَّة، ولكن عند أوَّل تعارض يقع عنده بين ما دلَّ عليه الكتاب والسُّنَّة وما يكون في الواقع؛ يُحدث له ذلك شكًّا وريبة، فتجده فيها كالحيران الَّذي له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا، ثمَّ ما يلبث أن يقدِّم ما يرى على ما يعلم.

قال حذيفة رضي الله عنه: «إنَّ أخوف ما أخاف على هذه الأمَّة أن يؤثروا ما يرون على ما يعلمون، وأن يضلُّوا وهم لا يشعرون»[6].

فالمؤمن الصَّادق هو الَّذي لا تزعزع يقينَه الحوادثُ والخطوب، بل يعتقد اعتقادًا جازمًا أنَّ ما أخبر به الرَّبُّ لا يكون إلاَّ حقًّا، وما جاء به الرَّسول لا يكون إلاَّ صدقًا، كما قال تعالى:

(6) رواه هناد في «الزُّهد» (935) وابن وضَّاح في «البدع والنَّهي عنها» (ص43، 76) وأبو نعيم في «الحلية» (255/1).

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام: 115]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: 15].

فالإيمان واليقين قرينان، قال ابن تيمية:

«فأهل اليقين إذا ابتلوا ثبتوا؛ بخلاف غيرهم فإنَّ الابتلاء قد يذهب إيمانه أو ينقصه»[7].

فينبغي على المؤمن أن يثبت على ما هو عليه وإن كثر في النَّاس الهالكون، وادَّعى مخالفة الواقع المرجفون، ولذلك قال ربُّنا جلَّ في علاه: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم].

قال ابن تيمية: «فإنَّ الخفيف لا يثبت بل يَطيشُ، صاحب اليقين ثابت. يقال: أيقنَ، إذا كان مستقرًّا، واليقين استقرار الإيمان في القلب علمًا وعملاً، فقد يكون علم العبد جيِّدًا، لكن نفسه لا تصبر عند المصائب بل تطيش»[8].

وقال ابن القيِّم: «فمن وفَّى الصَّبر حقَّه وتيقَّن أنَّ وعد الله حقٌّ؛ لم يستفزَّه المبطلون، ولم يستخفَّه الَّذين لا يوقنون، ومتى ضعف صبره ويقينه أو كلاهما استفزَّه هؤلاء، واستخفَّه هؤلاء، فجذبوه إليهم بحسب ضعف قوَّة صبره ويقينه، فكلَّما ضعف ذلك منه قوي جذبهم له، وكلَّما قوي صبره ويقينه قوي انجذابه منهم وجذبه لهم»[9].

فقلَّة اليقين إذن من أسباب ترك بعض النَّاس للحقِّ الَّذي علموه بحصول أوَّل معارض له في القلب، فيقدِّمون ما يرون على ما يعلمون، ويؤثرون ما يشاهدون على ما يُوعدون، يحسبونه فوزًا عظيمًا، ونصرًا عزيزًا، وما هو ـ والله ـ إلاَّ ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور].

ولقد ذكَّرني صنيع هؤلاء بقول المتكلِّمين: «طريقة السَّلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم»! وما ذلك إلاَّ لقلَّة يقينهم؛ لأنَّ طريقة السَّلف قائمة على التَّسليم التَّام للنُّصوص واليقين بما دلَّت عليه، وأما هؤلاء فلسان حالهم يقول: منهج السَّلف في ترك الخروج على أئمَّة الجور أسلم وأورع، ومنهجنا أجدى وأنفع، وما ذلك إلاَّ لشكِّهم وقلَّة يقينهم.

⊙⊙⊙

(7) «مجموع الفتاوى» (3/330).
(8) «جامع المسائل» (3/260).
(9) «مدارج السَّالكين» (3/258).

الأمر الثَّاني: من أسباب الانحراف عن جادَّة الحقِّ والصَّواب: ردُّ الحقِّ إذا عُرض على الإنسان أوَّل مرَّة اتِّباعًا للهوى، وهذا باب هلك فيه خلائق لا يحصيهم إلاَّ الله، وقليل منهم من يتفطَّن أنَّه أتي من قِبله، لذلك تجد بعضهم يزداد يومًا بعد يوم ضلالاً إلى ضلاله، فتكثر سقطاته، وتعظم زلاَّته، ويتَّسع خرقه، ويقع فيما تقدَّمت الإشارة إليه، من رؤية المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا؛ والسَّبب أنَّ الله عاقبه بردِّه الحقَّ أوَّل مرَّة، فجعل قلبه يتقلَّب في أودية الغواية، ويتنقل بين سبل الضَّلالة كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام].

يقول ابن القيِّم: «فعاقبهم على ترك الإيمان به حين تيقَّنوه وتحقَّقوه؛ بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم، فلم يهتدوا له، فتأمَّل هذا الموضع حقَّ التَّأمُّل؛ فإنَّه موضع عظيم»[10].

⊙⊙⊙

الأمر الثالث: وهو نافع ـ إن شاء الله تعالى ـ من كبُر عليه أن يرى من كان بالأمس قدوة للنَّاس يعظ ويذكِّر، ويعلم ويصبِّر، تغيَّر أحواله، وتتناقض أقواله؛ فليَعلم أنَّ كثيرًا منهم لم يكونوا على الجادَّة من أوَّل يوم، بل كانوا يضمرون أشياء، وينطوون على أهواء، أظهروها للنَّاس لمَّا آن أوانها، ولا يستغرب ذلك ممَّن تربَّى تربية حركيَّة، وأثَّرت فيه الكتب الفكريَّة، وهؤلاء المشار إليهم وإن موَّهوا وراوغوا إلاَّ أنَّ حالهم لم تكن خافية على من رزقه الله البصيرة، وأعمل قواعد السَّلف، الَّتي منها: اعتبار النَّاس بأخدانهم وأخلاَّئهم.

قال عبد الله بن مسعود: «اعتبروا النَّاس بأخدانهم؛ فإنَّ المرء لا يخادن إلاَّ من يعجبه»[11].

وعن يحيى بن سعيد القطَّان قال: «لَمَّا قدم سفيان الثَّوري البصرة؛ جعل ينظر إلى أمر الرَّبيع ـ يعني ابن صبيح ـ وقدره عند النَّاس، سأل: أيُّ شيء مذهبه؟ قالوا: ما مذهبه إلاَّ السُّنَّة، قال: من بطانته؟ قالوا: أهل القدر، قال: هو قدريٌّ»[12].

(10) «مدارج السَّالكين» (1/90).
(11) رواه ابن أبي الدُّنيا في «كتاب الإخوان» (38)، وابن بطَّة في «الإبانة الكبرى» (381، 506)، ورواه مقتصرًا على الجملة الأولى منه ابن أبي شيبة في «المصنَّف» (25583) والطَّبراني في «الكبير» (8919)، والأخدان جمع خدن وخدين، وهو الصَّاحب والصَّديق.
(12) رواه ابن بطَّة في «الإبانة الكبرى» (426).

وعن الأوزاعي قال: «من ستر عنَّا بدعته؛ لم تخف علينا أُلْفته»[13].

وقال ابن عون: «من يجالس أهل البدع أشدُّ علينا من أهل البدع»[14].

وعن الأصمعي قال: «لم أر بيتًا قطُّ أشبه بالسُّنَّة من قول عدي:

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه

فإنَّ القرين بالمقارِن يقتدي»[15].

وعنه أيضًا قال: «سمعت بعض فقهاء المدينة يقول: إذا تلاحمت بالقلوب النِّسبة؛ تواصلت بالأبدان الصُّحبة»[16].

وشاهده في حديث النَّبيِّ ﷺ: «الأرواح جنود مجنَّدة؛ فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»[17].

□□□

فإذا تقرَّر هذا؛ فعلى أيِّ شيء يدلُّ صنيع أقوام يدَّعون اتِّباع السُّنَّة، وهم يجالسون التَّكفيريِّين، ويشيدون بالحركيِّين؟ وبماذا يُفسَّر تسابق طائفة من الدُّعاة . فضلاً عن الحشود من الأتباع . لاستقبال رأس من رؤوس الضَّلالة في هذا العصر لما رجع إلى موطنه الأصلي، وهم يصفونه بأشرف الأوصاف، ويلقِّبونه بأفخم الألقاب؟!

وجواب هذين السُّؤالين فيما قرأت قبل قليل من آثار السَّالفين، ولا يغيبنَّ عن ذهنك أنَّ كلامهم قليل كثير البركة.

ويدلُّك على صدق ما ذكرت لك . وأعني به الأمر الثَّالث .: أنَّك تجد من هؤلاء الدُّعاة من لا يُعرف له كلام في مسألة وجوب السَّمع والطَّاعة في غير معصية لولي الأمر المسلم وإن كان ظالمًا، مع شدَّة انحراف النَّاس عن هذا الأصل في أكثر الأمصار، وابتلاء الأمَّة بمن يماري فيه ويثير حوله الشُّبهات، وهو من الأصول العظيمة الَّتي امتاز بها منهج السَّلف عن غيره من المناهج البدعيَّة.

قال سلاَّم بن أبي مطيع: كان أيُّوب السَّختياني يسمِّي أهل الأهواء كلَّهم خوارج، ويقول: «إنَّ الخوارج اختلفوا في الاسم، واجتمعوا على السَّيف»[18].

فمن يترك بيان ذلك للنَّاس في وقت حاجتهم إليه لا يمكن أن يكون ناصحًا لأمَّته، وذلك منه ليدلَّ دلالة لا مرية فيها أنَّه يضمر خلافه، فهل يغني عنه بعد ذلك انتسابه للسُّنَّة الغراء، أو تمسُّحه بالعلماء الكبراء، ولسان الحال أبلغ من لسان القال، لمن أراد الاتِّعاظ والاعتبار.

وكذلكم من أبطن سريرة سوء فلا بدَّ أن يفضحه الله ويجلِّي أمره لعباده، لا سيَّما أهل البصائر منهم، قال سبحانه: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: 179]، وقال جلَّ وعلا: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ۝٢٩ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ۝٣٠﴾ [سورة محمد].

يقول العلامة السِّعدي: «يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ من شبهة أو شهوة، بحيث تخرج القلب عن حال صحَّته واعتداله، أنَّ الله لا يخرج ما في قلوبهم من الأضغان والعداوة للإسلام وأهله؟! هذا ظنٌّ لا يليق بحكمة الله، فإنَّه لا بدَّ أن يميِّز الصَّادق من الكاذب، وذلك بالابتلاء بالمحن، الَّتي من ثبت عليها، ودام إيمانه فيها، فهو المؤمن حقيقة، ومن ردَّته على عقبيه فلم يصبر عليها، وحين أتاه الامتحان جزع وضعف إيمانه، وخرج ما في قلبه من الضَّغن، وتبيَّن نفاقه، هذا مقتضى الحكمة الإلهية... ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: لا بدَّ أن يظهر ما في قلوبهم، ويتبيَّن بفلتات ألسنتهم، فإنَّ الألسن مغارف القلوب، يظهر منها ما في القلوب من الخير والشَّرِّ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ﴾ فيجازيكم عليها»[19].

والآية ليست خاصَّة بأهل النِّفاق؛ لأنَّ العبرة بعموم اللَّفظ وهو قوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، فيعمّ كلّ شبهة أو شهوة، كما وردت الإشارة إليه في أوَّل كلام السِّعدي.

□□□

(13) رواه ابن أبي الدُّنيا في «كتاب الإخوان» (40) وابن بطَّة في «الإبانة الكبرى» (425، 513) واللاَّلكائي في «أصول الاعتقاد» (257).

(14) رواه ابن بطَّة في «الإبانة الكبرى» (491).

(15) رواه ابن بطَّة في «الإبانة الكبرى» (383).

(16) رواه ابن بطَّة في «الإبانة الكبرى» (427).

(17) رواه البخاري (3336) من حديث عائشة ، ومسلم (2638) من حديث أبي هريرة .

(18) رواه ابن الجعد في «المسند» (1275) والآجرِّي في «الشَّريعة» (2057) واللاَّلكائي في «أصول الاعتقاد» (290) والهروي في «ذمِّ الكلام» (989).

(19) «تيسير الكريم الرَّحمن» (ص755).

وأختم هذه المقالة بكلام بديع للعلاَّمة ابن القيِّم، يبيِّن فيه أنَّ الهدى والفلاح، والسَّعادة والنَّجاة، إنَّما تكون لمن اهتدى بهدى الله، وقدَّمه على كلِّ ما سواه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ الله سبحانه ضمن الهدى والفلاح لمن اتَّبع القرآن. والضَّلال والشَّقي[20] لمن أعرض عنه، فكيف بمن عارضه بمعقول، أو رأي، أو حقيقة باطلة، أو سياسة ظالمة، أو قياس إبليسي، أو خيال فلسفي، ونحو ذلك. قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾ [سُورَةُ طه]، فضمن سبحانه لمن اتَّبع هداه ـ وهو كلامه ـ الهدى في الدُّنيا والآخرة، والسَّعادة في الدُّنيا والآخرة.

فهاهنا أمران: طريقة وغاية؛ فالطَّريقة الهدى، والغاية السَّعادة والفلاح، **فمن لم يسلك هذه الطَّريقة لم يصل إلى هذه الغاية**، والله سبحانه قد أخبر أنَّ كتابه الَّذي أنزله هو الهدى والطَّريق، فلو كان العقل الصَّريح يخالفه لما كان طريقًا إلى الفلاح والرُّشد، وقد أخبر سبحانه أنَّ الَّذين اتَّبعوا النُّور الَّذي أنزل مع رسوله هم المفلحون لا غيرهم... **وكما جعل سبحانه الهدى والفلاح لمن اتَّبع كتابه وآمن به وقدمه على غيره، جعل الضَّلال والشَّقاء لمن أعرض عنه واتَّبع غيره، وعارضه برأيه ومعقوله وقياسه**»[21].



نسأل الله عزَّ وجل أن يهدينا سواء السَّبيل، ويرزقنا البصيرة واليقين، وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبيِّنا المصطفى الأمين.

(20) كذا في المطبوع.
(21) «الصَّواعق المرسلة» (2/566 ـ 567).

الجليس

محمد بوسنة
إمام خطيب . الجزائر

لقد تضافرت نصوص القرآن ونصوص السُّنَّة والآثار عن السَّلف الصَّالح في الحثِّ على الجليس الصَّالح والتَّحذير من الجليس السَّوء.

فمن القرآن قوله عز وجل: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧﴾ [سُورَةُ الزُّخۡرُفِ]، وقوله سبحانه: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ٢٩﴾ [سُورَةُ الفُرۡقَانِ]، وقوله أيضًا: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ [فُصِّلَتۡ : 25].

وأمَّا الأحاديث عن النَّبيِّ ﷺ فكثيرة، منها قوله ﷺ: «**إنَّما مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ، وَالجَلِيسِ السَّوءِ كَحَامِلِ المسك وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المسك إمَّا أن يُحذِيَكَ . أي: يعطيك .، وَإِمَّا أَنْ تَبتَاعَ منهُ، وَإِمَّا أن تَجِدَ منهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ إمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثَةً**»[1].

قال النَّووي رحمه الله في شرح هذا الحديث: «فيه فضيلة مجالسة الصَّالحين وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب، والنَّهي عن مجالسة أهل الشَّرِّ وأهل البدع ومن يغتاب النَّاس أو يكثر فجره وبطالته»[2].

وقوله ﷺ: «**لاَ تُصَاحِبْ إلاَّ مُؤمنًا وَلاَ يَأْكُلْ طَعَامَكَ إلاَّ تَقيٌّ**»[3]، وقوله ﷺ أيضًا: «**الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ**»[4].

وأمَّا الآثار عن السَّلف من أقوال وأفعال فهي أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر، فقد كانوا . رحمهم الله . يوصون بمجالسة صاحب المعتقد السَّليم وصاحب السُّنَّة، ويحذِّرون في الوقت نفسه من صاحب المعتقد السَّيِّء وصاحب البدعة في اعتقاده أو عمله.

يقول يوسف بن أسباط الواعظ المشهور: «كان أبي قدريًّا وأخوالي روافض، فأنقذني الله بسفيان».

فانظر . رعاك الله . كيف أشار هذا الزَّاهد رحمه الله إلى الخطورة الَّتي كانت تكتنفه لو أنَّه استمرَّ في أحضان أبيه وأخواله من ذوي المعتقد السَّيِّء، ولكنَّ الله . عزَّ وجلَّ . أنقذه بأن قيَّض له إمامًا من أئمَّة أهل السُّنَّة وهو سفيان الثَّوري حينما صاحبه وجالسه.

(1) أخرجه البخاري (2101) ومسلم (2628) من حديث أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه.

(2) «شرح مسلم» (178/16).

(3) رواه أحمد (11337) وأبو داود (4832) والتِّرمذي (2395)، وهو حسن كما ذكره الألباني في «صحيح الجامع» (7341).

(4) أخرجه أبو داود (4833) والتِّرمذي (2378) وحسَّنه الألباني في «الصحيحة» (927).

صفات الجليس الصَّالح والجليس السَّوء

ولما للصَّداقة من أهمِّيَّة في حياة المسلم وتأثير على سلوكه فقد ذكر العلماء صفات يجب على كلِّ مسلم أن يختار صديقه وجليسه على وفقها، لعلِّي ألخِّص أهمَّها في أربع صفات:

□ أوَّلها: أن يكون هذا الصَّاحب أو الجليس ذا دين واستقامة؛ فإنَّ ذا الدِّين يقف به دينه على الخيرات ويجنِّبه المحرَّمات، ممَّا يعود على صاحبه بالخير، وتارك الدِّين عدوٌّ لنفسه فكيف تُرجى منه مودَّة غيره؟! قال بعض الحكماء: «اصْطَفِ من الإخوان ذا الدِّين والحسب والرَّأي والأدب؛ فإنَّه ردء لك عند حاجتك، ويد عند نائبتك، وأنسٌ عند وحشتك، وزينٌ عند عافيتك» فالدِّين شرطٌ ضروريٌّ للجليس الصَّالح والصَّديق النَّاصح، ولن يكون صديقًا ناصحًا من يكون على غير دينك، ولن يكون خليلاً وفيًّا من يخالفك في الاعتقاد، وكلُّ صداقة تبنى على غير الإسلام فإنَّ ضررها متيقَّنٌ منه قلَّ أو كثر، وستنقلب هذه الصَّداقة إلى عداوة يوم تتبيَّن الحقائق وتزول الغشاوة عن العيون والبصائر كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف]، المتَّقون خلَّتهم باقيةٌ لا انفصام لعراها ولا تصدُّع لبنيانها؛ لأنَّها قائمةٌ على أسس ثابتةٍ وهي طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

□ ثانيها: أن يكون عاقلاً؛ فإنَّ العقل رأس المال، والصَّديق الأحمق يفسد أكثر ممَّا يصلح ويضرُّ أكثر ممَّا ينفع، لذا كان لا بدَّ أن يكون الصَّديق صاحب عقل موفور وسلوك محمود، ومن الجهل صحبة ذوي الجهل والحماقة ممَّن لا تدوم صداقتهم ولا تثبت مودَّتهم.

□ ثالثها: أن يكون محمودَ الأخلاق، مرضيَّ الافعال، مؤثرًا للخير، آمرًا به، كارهًا للشَّرِّ ناهيًا عنه.

□ رابعها: أن لا يكون فاسقًا؛ فإنَّ الفاسق لا خير في صحبته، لأنَّ مَن لا يخاف الله لا تؤمن غائلته، ولا يوثق بصداقته، بل يتغيَّر بتغيُّر الأغراض، ويتقلَّب بتقلُّب الزَّمان.

قال عمر الفاروق رضي الله عنه: «ولا تصحب الفاجر فتتعلَّمَ من فجوره، ولا تطلعه على سرِّك، واستشر في أمرك الَّذين يخشون الله»[5].

فهذه صفات الَّذين يأنس بهم الجليس، ويسعد بهم الصَّديق لإخلاصهم في المودَّة، وإعانتهم على النَّائبة وأمن جانبهم من كلِّ غائلة، فمن وفِّق لصحبة من كانت هذه صفاته وأخلاقه، وتلك شمائله وآدابه فذلك عنوان سعادته وأمارة توفيقه فليستمسك بغرزه وليعضَّ عليه بنواجذه.

ثمرات مصاحبة الصَّالحين

في مصاحبة الصَّالحين منافع أخرويَّة من وراثة الجنان ومغفرة الذُّنوب وستر العيوب، ومنافع دنيويَّة يمكن إجمالها فيما يلي:

◆ أنَّ مصاحبتهم دليل على صلاح من يجالسهم، فالصَّاحب مرآة تدلُّ عليك وقد قيل: «قل لي من تصاحب أقل لك مَن أنت»، لذا قال النَّبيُّ ﷺ: «**الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**»[6]، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «ما من شيءٍ أدلُّ على شيءٍ ولا الدُّخان على النَّار من الصَّاحب على الصَّاحب»، وقال مالكُ بن دينار رحمه الله: «النَّاس أشكالٌ: الحمام مع الحمام والغراب مع الغراب والصَّعو مع الصَّعْو، وكلٌّ مع شكله»[7]، وقال الأوزاعي: «الصَّاحب كالرُّقعة للثَّوب إذا لم تكن مثله شانته».

◆ أنَّ مصاحبتهم تحثُّك على أعمال البرِّ، وتذكِّرك ببرِّ والديك، وصلة الأرحام، والإحسان إلى الفقراء والمساكين، وتنمِّي فيك مكارم الأخلاق من صدق الحديث وكرم السَّجايا والعفاف والصِّلة والشَّجاعة وقول الحقِّ، إلى غير ذلك من مكارم الأخلاق، وفي المقابل تعينك لتتخلَّى عن الرَّذيلة وتنخلع عن المعصية، فتجتنب القيل والقال، والخوض في الأعراض واغتياب المؤمنين والمؤمنات مراعاةً لهؤلاء الجلساء وتقديرًا لمكانتهم ومنزلتهم.

◆ أنَّ في مصاحبتهم عونًا للمرء على رؤية عيوبه والعمل على إصلاحها؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**المُؤْمِنُ مِرْآةُ المُؤْمِنِ والمُؤْمِنُ أَخُو المُؤْمِنِ يَكُفُّ عَلَيه ضَيْعَتَهُ**[8] **وَيَحُوطُهُ مِنْ وَرَائِه**»[9] فالمؤمن مرآة لأخيه يرى من خلالها عيوبه.

◆ أنَّ الجلساء الصَّالحين يحفظون المرء في غيبته، فلا يفشون له سرًّا ولا ينتهكون له حرمةً، ويدافعون عنه في مواطن يحتاج فيها إلى من يدافع عنه، قال بعض الأدباء: «لا تصحب من النَّاس إلاَّ من يكتم سرَّك، ويستر عيبك، فيكون معك في النَّوائب، ويؤثرك بالرَّغائب، وينشر حسنتك، ويطوي سيِّئتك،

(5) «الزُّهد» لابن المبارك (1399)، و«المصنَّف» لابن أبي شيبة (34476).

(6) رواه مسلم (2638).

(7) «مساوئ الأخلاق» (693).

(8) أي: يمنع ضياعه وهلاكه فيجمع عليه معيشته ويضمُّها إليه.

(9) رواه أبو داود (4918)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (178).



فإن لم تجده فلا تصحب إلاَّ نفسك».

◆ أنَّ الجلساء الصَّالحين يدعون لمن صاحبهم في الغيب ويرشدونهم في حضورهم، وينصحونهم إذا استنصحوهم، ويصلُّون عليهم بعد موتهم ويستغفرون لهم، قال بعض العلماء: «لا تصحب إلاَّ أحد رجلين: رجل تتعلَّم منه شيئًا في أمر دينك فينفعك، أو رجل تعلِّمه شيئًا في أمر دينه فيقبل منك».

كما أنَّ دعاءهم ينفع في الحياة وعند الموت، قال النَّبيُّ ﷺ: **«دَعوَةُ المَرْءِ المُسْلم لأَخيه بظَهْرِ الغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عنْدَ رَأْسه مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لأَخيه بخَيْرٍ قَالَ المَلَكُ المُوَكَّلُ به: آمين، وَلَكَ بمثْلٍ»**[10].

قال عبيد الله بن الحسن رحمه الله لرجل: «استكثر من الصَّديق، فإنَّ أيسر ما تصيب أن يبلغه موتُك فيدعُو لك».

◆ أن مجالسة الصَّالحين تهابها الشَّياطين، فمجالس الصَّالحين حصنٌ حصينٌ من وساوس الشَّياطين وأذاهم، فإذا فارق الإنسان مجالس الصَّالحين أو اعتزلهم كان عرضةً للوساوس الرَّديئة والأفكار المنحرفة الَّتي يلقيها الشَّيطان، ولذلك قال النَّبيُّ ﷺ: **«عَلَيكَ بالجَمَاعَة؛ فإنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ القَاصيَةَ»**[11].

◆ أنَّ مصاحبة الأخيار وزيارتهم في الله سببٌ لدعاء الملائكة لك، أخرج التِّرمذيُّ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: **«مَنْ عَادَ مَريضًا أَوْ زَارَ أَخًا لَهُ في الله نَادَاهُ مُنَادٍ أَنْ طبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ وَتَبَوَّأْتَ منَ الجَنَّة مَنْزلاً»**[12].

◆ أنَّ رؤية الصَّالحين تذكِّر بالله، فقد أخرج الطَّبراني من حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: **«أَوليَاءُ الله تَعَالَى الَّذينَ إذَا رُؤُوا ذُكرَ اللهُ تَعَالَى»**[13]، فدلَّ هذا على أنَّ للأولياء والأخيار تأثيرًا على من رآهم، وأنَّ من يراهم يتذكَّر الله - عزَّ وجلَّ -، ولعلَّ سبب ذلك ما يجده فيهم من الهدى والسَّمت والهيبة وحسن السِّيرة، فإذا كان هذا يحصل لمن رآهم فكيف بمن يجالسهم ويخالطهم؟! قال سفيان رحمه الله: «لربَّما لقيت الأخ من إخواني فأقيم شهرًا عاقلاً بلقائه».

وبالجملة فمجالسة الصَّالحين نعمةٌ كان السَّلف يسألون الله أن ييسِّرها لهم، أخرج البخاري (3742) أنَّ علقمة رحمه الله قال: «قدمت الشَّام فصلَّيت ركعتين ثمَّ قلت: اللَّهمَّ يسِّر لي جليسًا صالحًا، فأتيت قومًا فجلست إليهم فإذا شيخٌ قدجاء حتَّى جلس إلى جنبي، قلت: من هذا؟ قالوا: أبو الدَّرداء، فقلت إنِّي دعوت الله أن ييسِّر لي جليسًا صالحًا فيسَّرك لي، قال: ممَّن أنت؟ قلت: من أهل الكوفة، قال: أوليس عندكم ابن أمِّ عبد؟ - يعني عبد الله بن مسعود - صاحب النَّعلين والوساد والمطهرة، وفيكم الَّذي أجاره الله من الشَّيطان؟ يعني على لسان نبيِّه ﷺ - أي عمَّار بن ياسر - أوليس فيكم صاحب سرِّ النَّبيِّ ﷺ الَّذي لا يعلمه أحدٌ غيرُه؟ - يعني حذيفة بن اليمان -».

فمجرَّد وجود هؤلاء الأفاضل هو بركةٌ على أهل الكوفة وشرفٌ لهم في صحبتهم.

◆ أنَّ مجالسة الصَّالحين تؤدِّي إلى محبَّتهم في الله، ولا يخفى أنَّ المحبَّة في الله منحةٌ ربَّانيَّةٌ وهبةٌ إلهيَّة، ولها من الكرامة والفضل وعلوِّ المنزلة والأجر ما يدفع بنا إلى استشرافها والحرص عليها، يكفينا من فضلها وشرفها أنَّها سببٌ لمحبَّة الله للعبد، فقد قال النَّبيُّ ﷺ: **«إنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا لَهُ في قَريَة أُخْرَى فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَته** - أي على طريقه - **مَلَكًا فَلَمَّا أَتَى عَلَيه قَالَ: أَيْنَ تُريدُ قال: أُريدُ أَخًا لي في هَذه القَرْيَة. قَالَ: هَلْ لَكَ عليه منْ نعْمَة تَرُبُّهَا** - أي تقوم بها وتسعى في صلاحها - **قَالَ: لاَ غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ في الله عزَّ وجلَّ. قَالَ: فَإنِّي رَسُولُ الله إلَيْكَ بَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فيه»**[14]، قال ﷺ: **«قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَجَبَتْ مَحَبَّتي للمُتَحَابّينَ فيَّ وَالمتَجَالسينَ فيَّ وَالمُتَزَاورينَ فيَّ والمتباذلين فيَّ»**[15].

أضرار مصاحبة الأشرار:

○ مصاحبة أهل الفساد تصرفك عن طاعة الله وتورث الحسرة والنَّدامة يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ

(10) أخرجه مسلم (2732) من حديث أبي الدَّرداء رضي الله عنه.
(11) أخرجه أحمد (27514) والنَّسائي (847)، وأبو داود (547)، وحسَّنه الألباني.
(12) أخرجه أحمد (8536) والترمذي (2008) وابن ماجه (1443) وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» (6387).
(13) حسَّنه الألباني في «الصَّحيحة» (1933).
(14) أخرجه مسلم (2567) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(15) أخرجه مالك في «الموطَّأ» (2744) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (4331).

ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [سُورَةُ الفُرْقَانِ].

○ مصاحبة أهل السُّوء تقودك إلى التَّشبُّه بهم في هديهم وعملهم وسمتهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فالمشابهة والمشاكلة في الأمور الظَّاهرة توجب مشابهة ومشاكلةً في الأمور الباطنة على وجه المسارقة والتَّدريج الخفيِّ»[16].

○ أهل السُّوء يجعلونك تتجرَّأ على المعاصي والكبائر فتتهاون بها وتستثقل الطَّاعات.

○ أهل السُّوء لا تخلو مجالسهم من محرَّمات ومعاص كالغيبة والنَّميمة والكذب واللَّعن ونحو ذلك، فمن جالس صاحب السُّوء فإمَّا أن يجاريه فيما يقول فيكون شريكًا له في الإثم أو لا يجاريه ولكن لا ينكر عليه فهو شريكٌ في الإثم؛ لأنَّ الإنكار يستلزم مفارقة المجلس إذا استمرَّ المنكر امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ].

○ مجالس أهل السُّوء ترجع على العبد بالحسرة والنَّدامة يوم القيامة، فقد أخرج أبو داود في «سننه» (4855) وأحمد في «مسنده» (10680) أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: **«مَا مِنْ قَوْم يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِس لاَ يَذْكُرُونَ الله فيه إلاَّ قَامُوا عَنْ مِثْل جِيفَة حِمَار وَكَانَ ذَلِكَ المَجْلِسُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً يَوْمَ القِيَامَة»**[17].

○ أهل السُّوء لا يحفظون العهود، ولا يصونونك في أهلك، فإذا كانوا معك أظهروا لك الحبَّ والودَّ ويطعنونك في ظهرك، وربَّما خانوك في أهلك، قال النَّبيُّ ﷺ: **«تَجدُونَ منْ شَرِّ النَّاس ذَا الوَجْهَيْن الَّذي يَأْتي هَؤُلاَء بوَجْه وَهَؤُلاَء بوَجْه»**[18]، وقال بعض السَّلف: «لا تأمننَّ فاسقًا فإنَّه خان أوَّل منعم عليه وهو الله».

○ أهل السُّوء يضيِّعون أوقاتك - الَّتي هي رأس مالك - في الباطل، ويشغلونك عن ذكر الله وعن الصلاة.

قال أبو حاتم ابن حبَّان رحمه الله: «وكلُّ جليس لا يستفيد المرء منه خيرًا تكون مجالسة الكلب خيرًا من عشرته، ومَن يصحب صاحب السُّوء لا يسلم، كما أنَّ من يدخل مداخل السُّوء يُتَّهم»[19].

○ صاحب السُّوء من أتباع الشَّيطان يزيِّن لك الباطل ويشكِّك فيما أنت عليه من الحقِّ، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [سُورَةُ الأَنْعَامِ]، فأصحاب السُّوء وهم شياطين الإنس كشياطين الجنِّ الَّذين يقعدون لابن آدم عند طرق الخير ليصرفوه ويصدُّوه عنها، قال ﷺ: «**إنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لابن آدَمَ بأَطْرُقه فَقَعَدَ لَهُ بطَريق الإسْلاَم فَقَالَ: تُسْلمُ وَتَذَرُ دينَكَ وَدينَ آبَائكَ وَآبَاء أَبيكَ؟! فَعَصَاه فَأَسْلَمَ ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بطَريق الهجْرَة فَقَالَ: تُهَاجرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ؟! وَإنَّمَا مَثَلُ المُهَاجر كَمَثَل الفَرَس في الطِّوَل فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بطَريق الجهَاد فَقَالَ: تُجَاهدُ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْس وَالمَال فَتُقَاتل فَتُقْتَل فَتُنْكَح المَرْأَةُ وَيُقْسَمُ المَالُ؟! فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ**، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«فَمَنْ فَعَلَ ذَلكَ كَانَ حَقًّا عَلَى الله عزَّ وجلَّ أَنْ يُدْخلَهُ الجَنَّةَ، وَمَنْ قُتلَ كَانَ حَقًّا عَلَى الله عزَّ وجلَّ أَنْ يُدْخلَهُ الجَنَّةَ، وَإنْ غَرقَ كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُدْخلَهُ الجَنَّةَ أَو وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كَانَ حَقًّا عَلَى الله أَنْ يُدْخلَهُ الجَنَّةَ»**[20].

○ مصاحبة أهل السّوء تورث الشّقاوة حتَّى لو كان الجليس حيوانًا لا يعقل، قال النبي ﷺ: «**رَأْسُ الكُفْر نَحْوَ المَشْرق**[21] **وَالفَخْرُ وَالخُيَلاَءُ في أَهْل الخَيْل وَالإبل وَالفَدَّادينَ** - أي أصحاب البقر - **أَهْل الوَبَر، وَالسَّكينَةُ في أَهْل الغَنَم**»[22]، فالنَّاقة لما كانت تمشي رافعةً رأسها إلى أعلى أورث ذلك من يركبها كبرًا وخيلاء، والشَّاة لكونها ساكنةً أورثت أهلها سكونًا وتواضعًا.

قال الشَّيخ السَّعدي رحمه الله: «وبالجملة فمصاحبة الأشرار مضرَّةٌ من جميع الوجوه على من صاحبهم وشرٌّ على من خالطهم، فكم هلك بسببهم أقوامٌ وكم قادوا أصحابهم على المهالك من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون، ولذلك قال أبو الاسود الدُّؤلي: «ما خلق الله خلقًا أضرَّ من الصَّاحب السَّوء».

فعلى العاقل النَّاصح لنفسه، الَّذي يريد لها النَّجاة والسَّعادة في الدُّنيا والآخرة أن يتجنَّب مخالطة هؤلاء ويفرُّ منهم فراره من الأسد.

أسأل الله بمنِّه وكرمه أن يوفِّقني وإيَّاكم لجلساء الخير، وأن يجنِّبنا جلساء السُّوء، وأن يجعلنا مفاتيح للخير مغاليق للشَّرِّ.

وآخر دعوانا ان الحمد لله ربِّ العالمين.

---

(16) «اقتضاء الصِّراط المستقيم» (487).
(17) صحَّحه الألباني في «الصحيحة» (77).
(18) أخرجه البخاري (6058) ومسلم (2526) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(19) «روضة العقلاء» (ص101).
(20) أخرجه النَّسائي (3134) وأحمد (15958) بإسناد حسن.
(21) أي من جهة العراق ومن أطاعهم من العرب، وهو إشارةٌ إلى شدَّة كفر المجوس.
(22) أخرجه البخاري (3301) ومسلم (52) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



فتاوى شرعية

في حكم أذان العشاء في وقته الأصلي والجماعة الثانية بعد جمع الإمام بين الصلاتين

أ.د.محمد علي فركوس

أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر

السؤال:

في حالة الجمع بين الصَّلاتين لعذر المطر أو نحوه، فهل يُشرع الأذان للثَّانية في وقتها الأصلي؟ وهل يُشرع أداؤها جماعة في المسجد لمن حضرها؟ وجزاكم الله خيرًا.

الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على من أرسله اللهُ رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فإذا جمع الإمام الرَّاتب بين الصَّلاتين لعذر المطر أو نحوه، ثمَّ حضر المتخلِّفون عن صلاة العشاء المجموعة مع المغرب في وقت العشاء الأصلي؛ فإنَّه يُشرع لهم الأذان لها، لكنَّ المستحبَّ في ذلك أن يكون بالصَّوت الخفيِّ المرفوع قَدْرَ ما يُسْمِع ممَّن معه من المصلِّين، ولا يجهر به لئلاَّ يغرَّ النَّاس بالأذان فيشوِّش على مَن جمع مع الإمام، لما ثبت عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «**أَنَّهُ دَخَلَ مَسْجِدًا قَدْ صَلَّوْا فِيهِ، فَأَمَرَ رَجُلاً فَأَذَّنَ وَأَقَامَ فَصَلَّى جَمَاعَةً**»[1].

أمَّا إعادة جماعةٍ ثانيةٍ في المسجد؛ فإنْ كان للمسجد إمامٌ راتبٌ ففي إعادتها خلافٌ[2]، والأصحُّ ـ عندي ـ مشروعيَّةُ الجماعة الثَّانية بعد الجماعة الرَّاتبة بإذن الإمام الرَّاتب أو نائبِه في المسجد، فاستئذانه أزكى للنَّفس وأطهر وأبعد عن إيحاش صدر الإمام، ويُؤيِّد ذلك ما رواه أبو سعيد رضي الله عنه أنَّ رجلاً دخل المسجد، وقد صَلَّى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه، فقال صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ يَتَصَدَّقُ عَلَى هَذَا فَيُصَلِّيَ مَعَهُ؟**»، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ فَصَلَّى مَعَهُ[3].

أمَّا إن لم يكن في المسجد إمامٌ راتبٌ فلا أعلم خلافًا في مشروعيَّة أدائها جماعةً ثانيةً لانتفاء العلَّة المتقدِّمة، ولعموم قوله صلى الله عليه وسلم: «**صَلاَةُ الرَّجُلِ مَعَ الرَّجُلِ أَزْكَى مِنْ صَلاَتِهِ وَحْدَهُ، وَصَلاَتُهُ مَعَ الرَّجُلَيْنِ أَزْكَى مِنْ صَلاَتِهِ مَعَ الرَّجُلِ، وَمَا كَانَ أَكْثَرَ فَهُوَ أَحَبُّ إِلَى اللهِ**»[4]، ويحمل حديث أنس رضي الله عنه السَّابق على هذه الحالة.

علمًا أنَّ الإمام الرَّاتب أو نائبَه يجوز له أن يُصَلِّيَ بالجماعة الثَّانية إن لم ينصرف من المسجد، ويُعيدُها لنفسه نافلةً؛ عملاً بحديث جابر رضي الله عنه، قال: «**كَانَ مُعَاذٌ يُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم العِشَاءَ، ثُمَّ يَأْتِي مَسْجِدَ قَوْمِهِ فَيُصَلِّي بِهِمْ**» الحديث[5]، والعلم عند الله تعالى.

(1) أخرجه البخاري تعليقًا بصيغة الجزم في «الأذان» باب فضل صلاة الجماعة (131/1) بلفظ: «جَاءَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ إِلَى مَسْجِدٍ قَدْ صُلِّيَ فيه، فَأَذَّنَ وَأَقَامَ وَصَلَّى جَمَاعَةً»، قال الألباني رحمه الله: «ووصله البيهقيّ بسندٍ صحيحٍ عنه»، انظر: «تمام المنَّة» للألباني (155).

(2) انظر: «المغني» لابن قدامة (180/2).

(3) أخرجه أبو داود (574)، والترمذي (220)، وأحمد ـ واللفظ له ـ (11408) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «إرواء الغليل» (535).

(4) أخرجه أبو داود (554)، والطيالسي في مسنده (556)، من حديث أبيِّ بن كعبٍ رضي الله عنه، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (2242).

(5) أخرجه مسلم (465).

فتاوى شرعية

في حكم لُبس الأحذية والملابس الجلديَّة المصنوعة من جلد الخنزير

السُّؤال:

ما حكم الأحذية والحقائب والحافظات والملابس الجلديَّة المصنوعة من جلد الخنزير، وهل يَطْهُرُ بالدِّباغ؟

الجواب:

المعلوم أنَّ الخنزير نجس العَين باتِّفاق أهل العلم[6]، لصريح قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: 145].

والخنزير ـ وإن كان نجسًا لا يحلُّ بالذَّكاة ـ ففي طهارة جلده بالدِّباغ خلافٌ بين أهل العلم، وسبب الخلاف راجعٌ إلى العموم الوارد في قوله ﷺ: «**أَيُّمَا إِهَابٍ دُبِغَ فَقَدْ طَهُرَ**»[7]، فهل هو من العامِّ الباقي على عمومه؛ وبالتَّالي يتناول بالحكم طهارةَ كلِّ جلد بالدِّباغ، سواءٌ كان الحيوان طاهرًا مُطلقًا مأكولَ اللَّحم أو غيرَ مأكول، أي: محرَّمًا أكلُه أو نجسًا، أو هو من العامِّ المخصوص بما كان طاهرًا في الحياة مطلقًا، سواءٌ كان مباح الأكل أو محرَّمًا، أو هو من العامِّ الَّذي أريد به خصوصُ جلدِ مأكولِ اللَّحم كالإبل والبقر والغنم ونحو ذلك؟

وفي تقديري أنَّ الحديث من العموم الَّذي أريد به خصوص جلدِ ما تحلُّ ذكاتُه من مأكول اللَّحم، ويدلُّ عليه أنَّ النَّبيَّ ﷺ دعا بماء من عند امرأة، قالت: ما عندي إلاَّ في قِرْبَة لي مَيْتَة، قال ﷺ: «**أَلَسْتِ قَدْ دَبَغْتِهَا؟**»، قالت: بلى، قال: «**فَإِنَّ دِبَاغَهَا ذَكَاتُهَا**»[8]، فشبَّه النَّبيُّ ﷺ في هذا الحديث الدِّباغَ بالذَّكاة، ولا يخفى أنَّ الذَّكاة لا تطهِّر إلاَّ ما يباح أكلُه، والدِّباغ من جهةٍ أخرى يشبه الحياة، والحياة لا تدفع النَّجاسة، فكذلك الدِّباغ، والخنزير نجس العين باتِّفاقٍ لا يحلُّ بالذَّكاة، لذلك كانت نجاسته لا تقبل التَّطهير بالدِّباغ، فهو كَالْعَذِرَةِ لا يمكن تطهيرها بحالٍ ولو غُسلت بماء البحر.

ولَمَّا كانت هذه الأحذية والحقائب والملابس الجلديَّة مصنوعةً بجلد الخنزير، فإنَّ نجاسته لا تطهر بحال؛ لأنَّها نجاسةٌ عينيَّةٌ، فلذلك وجب على المسلم أن يطهِّر ثيابه ومكانه من النَّجاسة بالابتعاد عنها أو إزالتها عنه والتَّنَزُّه عن قذارتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ [المدثر].

والعلمُ عند الله تعالى.

⊙⊙⊙

(6) قال ابن عبد البرِّ المالكي رحمه الله في «الكافي» (18): «وأمَّا الحيوان كلُّه في عينه فليس في حيٍّ منه نجاسةٌ إلاَّ الخنزير وحده، وقد قيل: إنَّ الخنزير ليس بنجسٍ حيًّا، والأوَّل أصحُّ».

قلت: هذا إذا كان الخنزير حيًّا، أمَّا إن مات بأيِّ سببٍ أزهق روحه فإنه معدودٌ من أنواع النَّجاسات اتِّفاقًا، ونقل ابن رشدٍ الحفيد المالكيّ رحمه الله في «بداية المجتهد» (76/1) الإجماع على نجاسة الخنزير بعد ذهاب روحه، حيث قال: «وأمَّا أنواع النَّجاسات، فإنَّ العلماء اتَّفقوا من أعيانها على أربعةٍ: [وذكر منها] وعلى لحم الخنزير بأيِّ سببٍ اتَّفق أن تذهب حياته».

(7) أخرجه الترمذي (1728)، والنسائي (4241)، وابن ماجه (3609)، من حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (2711)، وأخرجه مسلم (366) بلفظ: «إِذَا دُبِغَ الإِهَابُ فَقَدْ طَهُرَ».

(8) أخرجه النسائي (4243)، من حديث سلمة بن المحبَّق رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «غاية المرام» (26).



حوار مع

الشيخ عبيد بن عبد الله الجابري

حفظه الله تعالى

هذا حوار تشرَّفت هيئة أسرة تحرير مجلَّة «الإصلاح» ممثَّلة في بعض أعضائها بعقده مع فضيلة الشَّيخ عبيد بن عبد الله الجابري ـ حفظه الله ونصر به السُّنَّة وأهلها ـ في منزله بالمدينة النَّبويَّة صبيحة يوم الثلاثاء 27 ربيع الثَّاني 1433هـ.

تضمَّن تعريفًا موجزًا بحياة الشَّيخ ونشأته العلميَّة ونبذة عن جهوده الدَّعويَّة وعلاقاته بالعلم والعلماء، وأجوبة عن أسئلة مهمَّة في شكل نصائح وتوجيهات قدَّمها فضيلته لمن يهمُّه أمر هذه الدَّعوة المباركة.

وهيئة المجلة إذ تنشر لأوَّل مرَّة مثل هذا الحوار على صفحات مجلَّتها بعد إذن الشَّيخ وموافقته على نشره، تسدي للشَّيخ عظيم امتنانها وسرورها لقبوله الدَّعوة وتلبيته للطَّلب، شاكرين له حسن ضيافته وكرمه، آملين من الله أن يمدَّ في عمره وأن يبقيه ذخرًا وسندًا للدَّعوة السَّلفيَّة وناصرًا ومدافعًا عن السُّنَّة وأهلها.

أجرى الحوار: عز الدين رمضاني
رئيس التحرير

◘ من هو الشَّيخ عبيد؟

الحمد لله، وصلَّى الله وسلَّم على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين، أمَّا بعد:

فبادئ ذي بدء، أقول: ليست سيرتنا بالَّتي تَشْرَئِبُّ لها القلوب، وتتهيَّأ لها الأسماع، فأولئك الأئمَّة الَّذين عرف النَّاس عوامُّهم وخواصُّهم سابقتهم في الفضل، والإمامة في الدِّين وجلالة القدر، ومن مشائخ الإسلام عندنا في هذا العصر: سماحة الوالد الإمام الأثري الفقيه الشَّيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله، وسماحة الإمام المحدِّث بلا منازع في هذا العصر الشَّيخ ناصر الدين رحمه الله، وسماحة الإمام الفقيه المجتهد المحقِّق الشَّيخ محمَّد بن صالح العثيمين رحمه الله، فأنا أقول: هؤلاء شيوخ الإسلام في هذا العصر وإن اغتاض من اغتاض، واستشاط غضبًا من استشاط، وهذا اعتراف منَّا لهم بجميل الفضل والإحسان علينا، ولا ينكر هذا من يعرف قدرهم.

وثانيًا: ما عندي هو جهد المُقِلِّ، ولكن ما دمتم طلبتموه وألححتم علينا فيه، فلن نبخل به عليكم ولا على من وراءكم من إخوانكم وأبنائكم، فأنتم ردؤنا ونحن ردؤكم إن شاء الله، والجامع بيننا ليس النَّسب ولا الصِّهر وإنَّما هي السُّنَّة، والمحبَّة في ذات الله سبحانه وتعالى، فنحن معًا نوالي فيها ونعادي فيها ونحبُّ فيها ونمنع فيها ونعطي فيها، ولا شيء عندنا غير ذلك.

أقول:

الاسم: عبيد بن عبد الله بن سليمان الحمداني الجابري.

الحمداني: قبيلة من بني جابر، وبنو جابر بطن من بطون مسروح بن حرب، ومساكننا في الأصل «وادي الفرع»، و«الفقير» خاصَّة، وهذه من أعمال المدينة النَّبويَّة، وهي تقع على طريق مكَّة، بينها وبين المدينة نحو مائة وخمسين كيلو مترًا، تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً، ولدتُ في تلك البلدة الَّتي هي «الفقير» بـ«وادي الفرع»، حسب ما يقال، في عام سبعة وخمسين وثلاثمائة وألف (1357هـ)، وأمضيت هناك سنين، ثمَّ انتقلت مع والدي رحمه الله إلى «مهد الذَّهب»، في خمسة وستِّين وثلاثمائة وألف (1365هـ).

وفي عام واحد وسبعين وثلاثمائة وألف تلقَّيت بداية التَّعليم في المدارس الحكوميَّة، وأمضيت فيه ثلاث سنوات، ثمَّ عدنا إلى بلدتنا «الفقير» بـ«وادي الفرع»، وذلكم في شهر شوَّال على ما أظنُّ من عام ثلاثة وسبعين وثلاثمائة وألف، واستوطنا المدينة ـ على ما أظن ـ في شهر محرَّم أو صفر من عام أربعة وسبعين

وثلاثمائة وألف إلى هذه السَّاعة.

انقطعتُ عن التَّعليم لأمور شخصيَّة وعائليَّة بتقدير الله سبحانه وتعالى مدَّةً من الزَّمن، ثمَّ بدأت التَّعليم من جديد في عام واحد وثمانين وثلاثمائة وألف، وكان مستمرًّا.

بدءًا من دار الحديث المدنيَّة، فمعهد المدينة العلمي، فكليَّة الشَّريعة بالجامعة الإسلاميَّة، وتخرَّجت فيها في أوَّل عام اثنين وتسعين وثلاثمائة وألف.

بعد ذلك بدأت العمل في وزارة المعارف آنذاك، والآن مسمَّاها: وزارة التَّربية والتَّعليم، وانتقلت إلى الجامعة في عام أربعة وأربعمائة وألف، وبالتَّحديد في يوم الأحد الثَّامن والعشرين من ذي الحجَّة، وعيِّنت مدرِّسًا في المعهد الثَّانوي، وكنت قبل ذلك في مركز الدَّعوة بالمدينة، وفي عام خمسة وأربعمائة وألف فُرغت للدِّراسات العليا، فكان -ولله الحمد- أن حقَّق الله أمنيتي هناك، فعُيِّنت في الماجستير -قسم التَّفسير، وأنا لا أزال مدرِّسًا في المعهد الثَّانوي، ولكن فُرِّغت للدِّراسة، وفي الثَّاني عشر من ربيع الأوَّل عام تسعة وأربعمائة وألف حصلت على الماجستير في التَّفسير، هذا ما يتعلَّق بالسِّيرة الاجتماعيَّة والعلميَّة.

◻ الكتاب الَّذي حقَّقتموه والَّذي كان رسالة الماجستير، هل هو كتاب التَّفسير من «صحيح البخاري»؟

هو موضوع وليس تحقيقًا، كان موضوع الرِّسالة: «تفسير محمَّد بن كعب القُرظي جمعًا ودراسة»؛ جمعته من نحو عشرين كتابًا، لأنَّ تفسيره لم يشمل القرآن كلَّه، شمل بعض السُّور، بل بعض السُّور فيها كلمة واحدة، فاجتمع نحو أربعمائة وهي على ما أظنُّ تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً، بها نلت الماجستير.

◻ من هم الشيوخ الَّذين أخذت عنهم أو أدركتهم، من المشايخ الكبار وأهل الحديث وغيرهم؟

بالنِّسبة لدار الحديث المدنيَّة، أكثر صحبة كانت للشَّيخ عمر ابن محمَّد فلاته رَحِمَهُ الله، كان هو مدير الدَّار آنذاك، وكان يُعنى بي -جزاه الله خيرًا- ويهتمُّ بأموري، وكنت ذا علاقة طيِّبة معه.

وأمَّا المشايخ الَّذين تلقَّيت منهم الدُّروس بدار الحديث، أذكر على سبيل المثال: الشَّيخ سيف الرَّحمن بن أحمد الدَّهلوي رَحِمَهُ الله، والشَّيخ عمَّار بن عبد الله المغربي رَحِمَهُ الله، والشَّيخ أحمد الجاوي رَحِمَهُ الله، والشَّيخ يوسف الهندي رَحِمَهُ الله، والشَّيخ حامد بن بكر كتبي والشَّيخ فلاَّته رَحِمَهُ الله، وغيرهم، هذا بدار الحديث بالمدينة.

أمَّا في المعهد العلمي فكثير، أذكر على سبيل المثال من الأساتذة: الشَّيخ عودة بن طارق الأحمد رَحِمَهُ الله، والشَّيخ خير الله ابن خليفة الحذيفي، والشَّيخ عبد الرَّحمن بن عبد الله العجلان، وهو إلى عهد قريب يعطي دروسًا في المسجد الحرام، كذلك الشَّيخ محمَّد بن عبد الله العجلان وهو أخوه، والشَّيخ عبد الله بن عبد العزيز الخضري رَحِمَهُ الله، وهذا وَفَدَ علينا من «القصيم»، كان مدرِّسًا في بعض معاهد «القصيم»، ثمَّ بعد ذلك انتقل إلى المدينة.

وفي الجامعة الإسلاميَّة على سبيل المثال: الشَّيخ أبو بكر الجزائري والشَّيخ عبد المحسن العبَّاد والشَّيخ حمَّاد ابن محمَّد الأنصاري رَحِمَهُ الله، وآخرون.

◻ فضيلة الشَّيخ!.. هل تذكرون من درس معكم من الطَّلبة يوم أن كنتم في الجامعة وصاروا من أهل العلم؟

نعم، تزاملنا في المعهد العلمي حتَّى نهاية كليَّة الشَّريعة أنا والشَّيخ صالح بن سعد السّحيمي، كذلك أخوه الشَّيخ ذياب ابن سعد السّحيمي، والشَّيخ ابن نصري القحطاني، والشَّيخ صالح بن عبد الله المحيسن من أهل القصيم، وهذا ليس في المعهد العلمي بل في الكليَّة، هؤلاء الَّذين درسنا معهم مستمرِّين من المعهد العلمي إلى نهاية كليَّة الشَّريعة، ثمَّ بعد ذلك انضاف إلينا آخرون، وكثير منهم لا أذكر أسماءهم، أذكر واحدًا اسمه حامد ابن مسعود التَّميمي لا أدري أخباره.

◻ هل لكم أن تذكروا لنا بعض الشُّيوخ الَّذين تأثَّرتم بهم في حياتكم العلميَّة سواء من المتقدِّمين الغابرين أو من المتأخِّرين؟

والله! أكثر من تأثَّرنا بهم الشَّيخ حمَّاد بن محمَّد الأنصاري رَحِمَهُ الله، والشَّيخ عبد المحسن وفَّقه الله.

◻ هل للشَّيخ ذكريات يحتفظ بها في المدينة النَّبويَّة، وبالأخصِّ في المسجد النَّبوي أو الجامعة الإسلاميَّة مثلاً؟

ليس هناك شيء يلفت النَّظر ويثير الانتباه غير ما ذُكر، لكن كنَّا -ولله الحمد- حريصين على التَّحصيل الدِّراسي، وتخرَّجت -ولله الحمد- في كليَّة الشَّريعة بتقدير ممتاز، والأوَّل على الدُّفعة، الشَّيخ عبد المحسن -وفَّقه الله- يذكر هذا، والَّذين زاملوني يذكرون هذا.

◻ هل كان لفضيلتكم علاقة بالشَّيخ ابن باز رَحِمَهُ الله، وكيف كانت؟

نعم، الشَّيخ عبد العزيز كنتُ على اتِّصال به حين التحقت بالجامعة، كان أوَّل عام التحقت به في الجامعة هو عام ثمانية

وثمانين وثلاثمائة وألف، كان نائبًا لرئيس الجامعة، كنت على اتِّصال به وأزوره حتَّى تخرَّجت، فلمَّا تخرَّجت وكان هو رئيس الجامعة الإسلاميَّة، كان يعرفني، لكن قويت العلاقة حينما انتقلت من التَّعليم إلى رئاسة البحوث العلميَّة ـ مركز الدَّعوة بالمدينة، هناك قويت العلاقة، وذلكم فيما أظنُّ أنَّه بمجرَّد ما باشرت العمل في المركز، منتقلاً من التَّعليم إلى رئاسة البحوث العلميَّة والإفتاء والدَّعوة والإرشاد، الشَّيخ رحمه الله كان هو الرَّئيس العام لإدارة البحوث العلميَّة والإفتاء والدَّعوة والإرشاد، بُليت بالإدارة، فكنت معاونًا للمدير في حضوره وأنوب عنه في غيابه، فكان اتِّصالي بالشَّيخ كثيرًا جدًّا، وكنت ضمن المستقبلين حينما يأتي لإدارة مجالس الجامعة، فكان يعرفني كثيرًا، وجزاه الله خيرًا يقرِّبني منه، حتَّى بعدما انتقلت من مركز الدَّعوة إلى الجامعة الإسلاميَّة وأتيت فإذا ذهب النَّاس قال: اقترب منِّي ـ يا عبيد الله ـ هل عندك أخبار؟ فكنت أحدِّثه بما جئت إليه من أجله، أحدِّثه ببعض الأمور، فيستجيب لا يردُّ لنا طلبًا رحمه الله، ويوم كنت في مركز الدَّعوة، تكون الاتِّصالات بيني وبينه كثيرة جدًّا في الهاتف، فأستشيره في بعض الأشياء، وأبني على المحادثة الَّتي جرت بيني وبينه فأكتب للجهة المسؤولة، فكانوا يلبُّون الطَّلب جزاهم الله خيرًا.

◘ هل للشَّيخ من انطباع حول مجلَّة «الإصلاح»؟ وهل من نصيحة يوجِّهها إلى إدارتها ومحرِّريها وقرَّائها؟

أوَّلاً: أنا قراءتي قليلة في الصُّحف والمجلاَّت، قليلة جدًّا؛ لأنِّي مشغول بما تيسَّر من التَّحصيل العلمي وبالدَّعوة، وإلقاء الدُّروس في المساجد، هذا جانب.

وجانب آخر: ليس عندي شخص يداول معي ليلاً ونهارًا، ليس عندي كاتب[1]، وأحيانًا يكون عندي كاتب أقضي أنا وإيَّاه الوقت في مسائل علميَّة من الكتب، ولكن ـ ولله الحمد ـ المجلَّة موثوقة عندي ومزكَّاة من المشائخ الموثوقين عندنا، ومنهم الشَّيخ عبد الله بن عبد الرَّحيم البخاري ـ حفظه الله ـ وغيره[2]، هذا من حيث المجلَّة، وأنا على علم ـ والحمد لله ـ بمنهجها الحسن الجميل.

والَّذي أوصي به الاستمرار والجديَّة مع الحكمة، الحكمة ضالَّة المؤمن أين ناشدها وجدها، وكذلك الطَّرح الجيِّد العلمي المحض الَّذي من وقف عليه إن كان الله مريدًا له الخير قبل واهتدى، ونفع أو انتفع، وإن كان ممَّن غلبت عليه الشِّقوة تقوم عليه الحجَّة، فحسب تجربتنا: المنصفون الَّذين يطالعون الرُّدود

(1) لأنَّ الشَّيخ فاقد البصر، عوَّضه الله بحبيبتيه الجنَّة.

(2) وكان الشَّيخ البخاري حاضرًا في المجلس.

العلميَّة المحضة قسمان: قسم فيه خير ويقبل ويفيد ويستفيد، والقسم الآخر تقوم عليه الحجَّة؛ لأنَّه بلغه الحقُّ وعرفه واستنكف عنه وأبى عنادًا، نحن لا حيلة لنا في هؤلاء النَّاس، نحن نبذل ما عندنا من النُّصح القائم على العلم وحسن الخطاب والرِّفق قدر الإمكان، وإن كنَّا نشتدُّ حيث يستدعي الأمر الشِّدَّة، وهذا هو هدي رسول الله ﷺ، هذا من الحكمة، حيث ينفع الرِّفق واللِّين نسلكه، وحيث لا ينفع إلاَّ الشِّدَّة والقوَّة مع حكمة وحسن زجر، بعيدًا عن السَّبِّ والشَّتم فنحن نسلكه، وهذا وذاك كما أسلفت هو هدي رسول الله ﷺ.

والقرَّاء ـ أيضًا ـ أوصيهم بأن يقرؤوا قراءة متبصِّر، متشوِّف إلى الحقِّ، متطلِّع إليه، محبًّا له، راغبًا فيما يوصله إليه، فهذا هو الَّذي يُفيد من هذه المجلَّة الموثَّقة ومن غيرها.

أمَّا من أخذ عددًا من المجلَّة أو كتابًا أو رسالة صغيرة وليس همُّه إلاَّ المطالعة فقط، فهذا لا يفيد ولا يستفيد، لا ينفع ولا ينتفع.

◘ عندنا وبالأخصِّ الشَّباب السَّلفي في الجزائر، لا شكَّ أنَّكم تسمعون عنهم وعن أخبارهم، وهم متواجدون بكثرة في المدينة وفي مكَّة وفي غيرهما، واتِّصالاتهم عليكم كثيرة من الجزائر، نرغب منكم أن تخصُّوهم بنصيحة وتوجيه، وهل ترون أنَّ ما هم عليه الآن من الحرص على السُّؤال وطلب العلم يؤهِّلهم لمزيد التَّحصيل؟

أوَّل ما أوصي به أبناءنا عندكم، وفي كلِّ مكان أن يلتفُّوا حول فضلاء القُطر، وعلمائهم والمشائخ الَّذين لهم صدق قدم وسبق عهد في الدَّعوة إلى الله، أوصيهم أن يوقِّروهم ويرتبطوا بهم، ويلتفُّوا حولهم، إن أمكن مواجهة ومشافهة فهذا أولى، وإن لم يمكن فبالاتِّصال وبتتبُّع الأخبار، فما جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ من أوتوا العلم في أيِّ قُطر إلاَّ نورًا وحصنًا، نورًا يستنير به ويستضيء به من أراد الله لهم الهداية، وحصنًا للأمَّة من توارد الشُّبهات والشَّهوات، فإذا انفصلت الأمَّة عن علمائها تكون هناك الهلكة إلاَّ من رحم الله.

ونحن نعلم ـ كما تعلمون ـ أنَّ الشِّرك فشا قبيل نوح عليه السلام حينما عبدت الأصنام الخمسة، كلٌّ من يعوق ويغوث وود وسواع ونسر، نُصبت تماثيلهم أوَّلاً للذِّكرى، فلمَّا هلك الصَّالحون والعلماء أوحى الشَّيطان إلى هؤلاء الجهلة أنَّ آباءكم ما صوَّروا هذه الصُّور إلاَّ ليعبدوها؛ فعبدوها، في الحديث الصَّحيح ما يؤكِّد هذا، قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ يَنْتَزِعُهُ انْتِزَاعًا مِنْ صُدُورِ النَّاسِ، وَلَكِنْ بِمَوْتِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمٌ، أَوْ

قَالَ: لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالاً فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»، وهذا أيضًا يؤكِّده الواقع، فكلَّما التفَّ النَّاس حولَ فضلائهم وإخوانهم الَّذين سبقوهم في الدَّعوة ولهم أيضًا خبرة كان التَّراصُّ والتَّلاحم والتَّعاضد والتَّناصر والوعي أقوى، وما أحسن ما قاله أمير المؤمنين رابع الخلفاء الرَّاشدين، رضي الله عنه وعنهم أجمعين: «النَّاس ثلاثة: عالم ربَّاني، ومتعلِّم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كلِّ ناعق»، همج رعاع كلٌّ من تكلَّم تبعوه، وظنُّوا أنَّ ما عنده الحقّ، وما أكثرهم في هذا الزَّمان، لماذا؟ لأنَّ النَّاس عزفوا عن علمائهم، وزهدوا فيهم، بل تلقَّوا عن أهل الأهواء السُّخريَّة بأهل العلم، وتلقيبهم بأشنع الألقاب وأبذئها، من فحش الكلام، ولهذا كانوا مصيدة، إلاَّ من رحم الله، فما علا السُّويدان والقرضاوي وصالح المغامسي إلاَّ حين قلَّت رغبة النَّاس في العلم وأهله وزهدوا في العلم وأهله، فأنا أوصي الشَّباب وكذلك غيرهم بهذه الوصايا، وحجَّة الله قائمة وغالبة، مضت سنَّة الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يَحْيَى من حيَّ عن بيِّنة، ويهلك من هلك عن بيِّنة، وما أحسن ما قاله عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لا يزال النَّاس صالحين متماسكين، ما أتاهم العلم عن أصحاب محمَّد وأكابرهم، فإذا أتاهم العلم عن أصاغرهم هلكوا»، الأصاغر: أهل الأهواء والجهَّال.

وابن سيرين رحمه الله يقول: «إنَّ هذا العلم دين؛ فانظروا عمَّن تأخذون دينكم».

وهذه الوصيَّة الغالية الجميلة الثَّمينة مصداقها من سنَّة النَّبيِّ ﷺ، قال عليه السلام: «المَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِه، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ».

◻ سؤال متعلِّق بما يسمَّى بظاهرة الفتور، والإعياء عن تحمُّل العلم الشَّرعي الموروث عن العلماء، هذه الظَّاهرة الَّتي للأسف الشَّديد نالت حتَّى الخاصَّة من النَّاس كطلبة العلم المتخرِّجين من الجامعات الإسلاميَّة، فنحن نعاني من هذا، فنطلب من الشَّيخ: هل له من نصيحة لهؤلاء ـ أصلح الله أحوالهم وهداهم ـ حتَّى يندمجوا مع إخوانهم السَّبَّاقين والعاملين في ميدان الدَّعوة إلى الله عزَّ وجلَّ؟

لا شكَّ هذه الظَّاهرة موجودة في كلِّ مكان، ونحن في الحقيقة نقول: يجب على هؤلاء أن يسهموا مع من سبقهم، ويقوُّوا من هو على شاكلتهم حتَّى ينضمُّوا إلى ركب الدَّعوة إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ على بصيرة؛ لأنَّ هذا الفتور يعقبه مع طول الزَّمن، وتقادم العهد تفكُّك وتمزُّق لشمل الدُّعاة إلى الله عزَّ وجلَّ، ولا يسلم إلاَّ من سلَّمه الله.

فنحن في الحقيقة نعتب عليهم حينما يتفرَّغون لأمور الدُّنيا وينسون ما تحمَّلوه من العلم، ثمَّ هو جناية عليهم هم؛ لأنَّهم ينسون ما تحمَّلوه من العلم في الشَّرع وغيره، وفي العقيدة والمنهج، وفي جميع الفقه في دين الله، فيصبحون كالعوامِّ، وقد وصل الأمر ـ أيضًا ـ بالكثير منهم إلى أنَّهم لا يفرِّقون ولا يميِّزون، فقد يرُوج عليهم باطل في قالب حقٍّ، وبدعة في قالب سنَّة، ومنكر في قالب معروف، وهذا في الحقيقة باب خطير جدًّا، قطعُ الطَّريق وسدُّه يكون بالالتفاف بإخوانهم الَّذين سبقوهم، والَّذين عاصروهم، والتَّكاتف في ميدان الدَّعوة إلى الله بما يتيسَّر لهم، وحبَّذا لو أنَّ كلَّ خرِّيج تعيَّن في مسجد، وينشر خلاله الدَّعوة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، يذكرون أنَّ الشَّيخ ابن عثيمين رحمه الله لَمَّا توفِّي شيخه ابن السَّعدي رحمه الله أوَّل ما بدأ التَّدريس بواحد، وأحيانًا يغيب الطَّالب، ثمَّ وصل العدد إلى الثَّلاثة، فكان يعطي الثَّلاثة مثل ما يعطي المئات من العلم، ثمَّ بعد ذلك وصل طلاَّبه إلى المئات، والآن ـ ولله الحمد ـ طلاَّبه متفرِّقون في العالم الإسلامي دعاةً، الكثير منهم دعاة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على بصيرة.

◻ هل أنتم الآن راضون حاليًا ومتفائلون مستقبلاً عن حال الدَّعوة السَّلفيَّة في ربوع العالم الاسلامي خاصَّة مع قيام ما يسمَّى الآن بالثَّورات السِّياسيَّة فيها؟

نحن نطمع ونخاف من ذلك، نجمع بين الخوف والطَّمع، فلا نيأس مِنْ رَوْحِ الله، ويمكن أن نتضجَّر ممَّا تعجُّ به السَّاحة من شبهات وتقليب الحقائق، وظهور رجال ليسوا أهلاً للدَّعوة لجهلهم بالشَّرع، ولكن أمامنا أمران:

الأمر الأوَّل: الإيمان الجازم بأنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يضيع هذه السُّنَّة، ولا يضيِّع الدَّعوة السَّلفيَّة؛ لأنَّها هي دين الله، الَّذي جاء به النَّبيُّون والمرسلون، بدءًا من نوح وختمًا بمحمَّد صلى الله وسلم على الجميع.

وممَّا يؤكِّد هذا في القلوب قوله ﷺ: «لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِينَ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ تَعَالَى».

وثانيًا: يسلِّينا حينما نرى تهافت النَّاس على ما يلقى في السَّاحة من الباطل والمنكر من شهوات وشبهات، يسلِّينا قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ [المائدة: 105]، ونتسلَّى كذلك ونقرع به أسماع من يحبُّنا في ذات الله، ويحبُّ سماع نصائحنا وآرائنا وإن

كانت قليلة بأقوال أهل العلم، وبأقوال الأئمَّة، من ذلكم قول الفضيل بن عياض رحمه الله: «عليك بطرق الهدى ولا يضرُّك قلَّة السَّالكين، وإيَّاك وطرق الضَّلالة ولا تغترَّ بكثرة الهالكين»، وما أحسن ما قاله أبو عثمان النَّيسابوري رحمه الله: «من أمَّر السُّنَّة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة»، وقد عُرف بالاستقراء والنَّظر أنَّ من تجرَّد للسُّنَّة وخالطت بشاشتها قلبه وأحبَّ أهلها لا تضرُّه الأهواء، ولا يضرُّه ما يحاك لأهل الإسلام من المكائد، من الشُّبهات حول أهل الإسلام؛ لأنَّه تجرَّد للسُّنَّة، وأمَّا من تجرَّد للأشخاص وامتلأ قلبه بهم فرأى أنَّهم هم أهله وخاصَّته فهذا تغلب عاطفته عقله فينجرف وراء من كان مقرَّبًا إليه ويُلبس عليه أنَّه لا يخطئ، مبرِّرين بمبرِّرات من بينها كثرة جهوده، فكيف تُهدر جهوده، هذا من إفرازات قاعدة المعذرة والتَّعاون: «نتعاون فيما اتَّفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه»، راجت بينهم، مع أنَّهم يبغضون القاعدة، لكن هذا منها وراجع عليه، ولعلَّه يشير إلى هذا الانقسام قوله ﷺ: «تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلُوبِ عَرْضَ الحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّمَا قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، وَأَيُّمَا قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، حَتَّى تَعُودَ (يعني القلوب) عَلَى مِثْلِ الصَّفَا لاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ، وَعَلَى مِثْلِ الكُوزِ مُجَخِّيًا لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»، أخرجه مسلم من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، والمقصود أنَّ المسلم يلزم ما عرف من السُّنَّة، ويدع عنه ما يروج في العامَّة من الخلط والخبط وغير ذلك من الغثاء والخبث، فلم يجعل الله - عزَّ وجلَّ - طريقًا إلى النَّجاة من الفتن إلاَّ الاعتصام بكتابه وسنَّة نبيِّه ﷺ، وهدي الخلفاء الرَّاشدين المهديِّين من بعده ﷺ.

◘ فضيلة الشيخ!.. تعرفون - بارك الله فيكم - أنَّ خصوم الدَّعوة السَّلفيَّة، خاصَّة في هذا الزَّمان كُثر، في نظركم مَنْ أخطرُهم؟

أوَّلاً: الصِّراع بين الحقِّ والباطل هذا من عهد النُّبوَّة، والنَّبيُّ ﷺ كان بين المشركين في مكَّة، ثمَّ بعد ذلك كان حوله المنافقون في المدينة، عبد الله بن أُبَي بن سلول رأس النِّفاق وعصابته، وممَّا ووجه به ﷺ وهو منه بريء، قول ذي الخويصرة التَّميمي - أخزاه الله، حين اعترض على النَّبيِّ ﷺ في قسم الغنائم -، قال: اعدل يا محمَّد! والله إنَّها قسمة ما أريد بها وجه الله، فلمَّا قال عمر رضي الله عنه: دعني أضرب عنقه يا رسول الله! قال: «دعه، فإنَّ له أصحابا يحقر أحدكم صَلاتَهُ مع صَلاته وصيامه مع صيامه، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّين كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّة»، فحدث بعده السَّبئيَّة أتباع عبد الله بن سبإ بن وهب الرَّاسبي اليمني اليهودي الَّذي أسلم نفاقًا وكيدًا لأهل الإسلام، فما انتهى أمرهم حتَّى قتلوا الخليفة الرَّاشد عثمان بن عفَّان رضي الله عنه، ثمَّ خرجت الخوارج، وجاءت بعد ذلك الأهواء من قدريَّة ومرجئة ومجبرة إلى غير ذلك.

وفي هذا الزَّمن أخطر التَّجمُّعات خصومةً لأهل السُّنَّة جماعة الإخوان المسلمين وجماعة التَّبليغ، وجميع الجماعات الدَّعويَّة الحديثة كلُّها خصوم للسَّلفيَّة، كلُّها أعداء للسُّنَّة؛ لأنَّها ضالَّة مُضلَّة، ويكفي شاهدًا على ضلالها أنَّها مؤسَّسة على أقوال البشر وتأصيلاتهم، فهي أفكار، لك أن تسمِّي كلَّ نحلة فكرًا، سواء كانت تبليغيَّة أو إخوانيَّة أو غيرها، ممَّا تفرَّع عنهم، أو مستقلَّة، فكلُّ خصم للدَّعوة السَّلفيَّة أصوله فكريَّة، من أفكار البشر، أمَّا الدَّعوة السَّلفيَّة فلم يؤسِّسها أحد من البشر، هي من عند الله، جاء بها النَّبيُّون والرُّسل كما قدَّمتُ، وأتباعهم وأصحابهم دعاة إليها.

◘ الانحراف عن منهج السَّلف، لا شكَّ أنَّه آفة خطيرة وله معالم وسمات، هل للشَّيخ أن يذكر لنا أبرزها وأخطرها؟

أقول، يعني أُتِيَ النَّاس من بابين - حسب نظري - ودخل عليهم الانحراف منهما:

أحدهما: سوء الفهم، وهذا سببه الجهل بشرع الله، قد يكون الرَّجل مثقَّفًا ثقافة عالية في علوم أخرى غير علم الشَّرع، لكنَّه في علم الشَّرع جاهل ينصِّب نفسه للدَّعوة على غير بصيرة، فيقع في تحريف نصوص، ويقع في أمور لا تمتُّ للدِّين بصلة، يظنُّها ميدانًا للدَّعوة، فينجرف وراءه من ينجرف من النَّاس.

والثَّاني: سوء القصد، وهذا مسلك أهل الأهواء أهل البدع.

هذا خلاصة الأسباب، ثمَّ يتفرَّع عن هذا، إذا قلنا ما أسباب الجهل مثلاً؟

أسباب الجهل عدم اهتمام المربِّين بالعلم الشَّرعي، من آباء وأمَّهات ووزارات تعليم إلاَّ من رحم الله، لا يهتمُّون بالعلم الشَّرعي عامَّة ولا بعلم التَّوحيد خاصَّة، فتنشأ أجيال جاهلة تكون مصيدة لأهل الأهواء، تذبح ثمينة لهم وغالية، ومنها سكوت كثير ممَّن أوتوا نصيبًا من العلم الشَّرعي وترك الميدان خاليًا يكتفون بواحد أو اثنين، قلَّة، وهم ينظرون كالمتفرِّج، فهذا

الجهل من اثنين أو ثلاثة أو عشرة بين ملايين النَّاس هذا يثمر لكن الثَّمرة قليلة، وكان الواجب عليهم أن يتكاتفوا مع إخوانهم، ولو بالمال في طبع كتب، في بناء مساجد، في حضِّ النَّاس على أخذ العلم من هؤلاء العلماء ونقلهم بسيَّارات.

ربَّما حَمَل على من يَتصدى للرُّدود بالحجَّة والبرهان سرًّا وعلنًا، وهذا يفُتُّ في العَضُد، فيعني حتَّى من أوتوا علمًا ـ إلاَّ من رحم الله ـ يقلِّدون هذا المخذِّل المزهِّد في الرُّدود على أهل الأهواء، هذا خلاف ما عليه السَّلف الصَّالح، فإنَّ السَّلف يردُّ بعضهم على بعض، يردُّ صاحب السُّنَّة الخطأ على أخيه، على صاحب سنَّة آخر، يردُّ عليه، لا هذا خطأ، هذا مخالف للدَّليل ويُبيِّن، فالأسباب كثيرة أذكر هذه على سبيل المثال لا على سبيل الحصر.

◘ سؤال تابع لما سبق من خلال ما ذكرتم بارك الله فيكم: كيف يمكن أن نحصِّن الشَّباب السَّلفي من خطر أهل الأهواء وتلبيساتهم؟

أقول: إذا التفَّ الشَّباب السَّلفي حول إخوانهم من أهل الدَّعوة إلى الله على بصيرة، تحصينهم بالعلم، والرَّبط بأهل العلم السَّابقين والأئمَّة، لكن هي المشكلة إذا كانوا متفرِّقين، أو كلُّ شباب يتَّبع شخصًا يظنُّونه هو الدَّاعي إلى الله، وهذا من أقوى أسباب التَّثبيط، وتفتير العزائم، وفتح الباب أمام الأهواء، ونصيحتي وهي مكرَّرة أن يلتفَّ الشَّباب السَّلفي حول الدُّعاة إلى الله على بصيرة، ويتحصَّنوا بالعلم، بصغار المسائل قبل كبارها، وعلى هؤلاء المربِّين المعلِّمين أن يبدؤوا أبناءهم، طلاَّبهم، تلامذتهم، بالتَّربية على صغار المسائل من أصول الدِّين، ثمَّ يتدرَّجون بهم، يصبح النَّاشئ قد تأسَّس على أساس متين من الفقه في دين الله.

◘ هناك شبهة يروِّجها البعض في التَّفريق بين العقيدة والمنهج، وأنَّ كلمة «منهج» لم ترد على ألسنة العلماء، ويكفي أن نعرف عن الشَّخص عقيدته دون النَّظر إلى منهجه، ما هو تعليقكم؟

الدَّعوة إلى الله على بصيرة سبيلها الفقه في دين الله، علمًا وتعليمًا، قال ﷺ: «**مَنْ يُرِد الله به خَيْرًا يُفَقِّهُ في الدِّين**»، فالسَّبيل الَّذي تنال به السَّعادة التَّامَّة العامَّة في الدُّنيا والآخرة هو الفقه في دين الله، ومفهومه أنَّ من لا يريد الله به خيرًا لا يفقِّهه في الدِّين، والفقه في الدِّين يقوم على ترسيخ العقيدة وترسيخ المنهج، منهج محمَّد ﷺ الَّذي جاء به من عند الله، فالحاصل أنَّ هذين متلازمان، لا تنفكُّ العقيدة عن المنهج، ولا ينفكُّ المنهج عن العقيدة، فالخوارج لَمَّا اختلَّ منهجهم اختلَّت عقيدتهم، فاستحلُّوا دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم في الدُّنيا؛ لأنَّهم يكفِّرون بالكبيرة، وأمضوا الوعيد، قالوا بإمضاء الوعيد على من مات مرتكبًا الكبيرة، وألغوا الوعد، أهل السُّنَّة ـ ولله الحمد ـ جمعوا بين هذا وهذا، حذَّروا من الفسق، من الكبائر والصَّغائر، ويذكرون الوعد ترغيبًا والوعيد ترهيبًا، وهكذا، كلُّ من اختلَّ منهجه اختلَّت عقيدته، فالإسلام عقيدة ومنهج، الإسلام هو تربية على أحكام الله، على مراضي الله، والبعد عن مساخطه ومغاضبه، هذا الَّذي يجب أن يعتقده المرء، ويسلم له قولاً وعملاً واعتقادًا، كما عرَّف أهل السُّنَّة الإيمان أنَّه: قول باللِّسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح، يزيد بالطَّاعة وينقص بالمعصية، والمنهج الطَّريق الَّذي تقرَّر به أحكام الله، العلميَّة وهي العقائد وأصول الدِّين، والعمليَّة.

فمن قال: إنَّ المنهج مُحدث يردُّ عليه من النَّاحية اللُّغوية ومن النَّاحية الشَّرعيَّة، فالمنهج في اللُّغة هو الطَّريق، فإن كان واضحًا مستقيمًا، قيل: هذا منهج حسن جميل سديد سليم، وإن كان ذا عوج والتواء، قيل: إنَّه مُعوجٌّ وليس بسديد.

وشرعًا هو تقرير أحكام الله من الكتاب والسُّنَّة وعلى فهم السَّلف الصَّالح.

والدَّليل على أنَّ المنهج لا تنفكُّ عنه الدَّعوة إلى الله على بصيرة، قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: 48].

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما كما هو في «صحيح البخاري»: «سبيلاً وسنَّةً».

إذًا المنهج مع هذه الدَّعوة مع هذا الدِّين حين أنزله الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أوَّل ما أنزله على رسول الله ﷺ، وجاء به إليهم وحيه، وابن تيمية رحمه الله له كتاب سمَّاه «منهاج السُّنَّة»، لكن أحيانًا يكون لمن يتوخَّى فيه الصَّلاح، لمن يتوخَّى فيه الدَّعوة، يخالط من أهل الأهواء من لا فقه عندهم في دين الله، فتنطلق على لسانه عبارات فيَضل ويُضلّ.

◘ ما تعليقكم على من وصف الدُّعاة أهل السُّنَّة والأثر بأنَّهم غلاة ومتشدِّدون وغيرذلك من الألقاب؟

أنا أسلفت فيما أسلفت وصيَّة الفضيل بن عياض رحمه الله فتذكَّروها وذكِّروا بها، هذا أوَّلاً.

ثانيًا: الصَّبر، فما انفكَّ أهل الأهواء عن حرب أهل السُّنَّة، بالسَّيف إن استطاعوا، وإلاَّ بكلمات الفحش والبذاءة، ووصفهم ممَّا يعلم الله أنَّهم منه أبرياء، براءة الذِّئب من دم يوسف ﷺ، والصَّابوني رحمه الله يذكر في كتابه «عقيدة السَّلف أصحاب أهل

الحديث»: «أنَّ من علامات أهل البدع وقيعتهم في أهل الأثر».

ونقول لمسنا هذا، فما يفرح أهل الأهواء بشيء فرحهم بالألقاب البذيئة الوقحة الفاحشة المفحشة، ذلك لأنَّهم يجدون فيها التَّنفير، ومن ثمَّ اصطياد من قلَّ فقهه في دين الله، هذا ليس بخفي، نحن نربِّي أبناءنا وأهلينا وننشر بين إخواننا سنَّة محمَّد ﷺ، كما جاءت في الكتاب الكريم وجاءت بها السُّنَّة الصَّحيحة ودعا إليها الأئمَّة، فَنِعْمَ الغلوُّ هذا، يسمُّونه غلوًّا، وأنتم تعلمون - بارك الله فيكم - أنَّه ليس بأيدينا سلطان، بأيدينا البيان، فمن رزقه الله البيان من معدنه الصَّالح - وهو الكتاب والسُّنَّة وعلى فهم السَّلف الصَّالح -، نفعت دعوته ولو بعد حين، أحيانًا لا تظهر إلاَّ بعد موته بسنين.

والمقصود الصَّبر والمصابرة، وردُّ الشُّبه والمحدثات بالدَّليل الشَّرعي الَّذي يقبله المنصف ومن علم الله فيه خيرًا وسبق في علمه أنَّه من أهل الهدى، وتقوم به الحجَّة على المخالف، هذه هي مهمَّتنا، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران]، ونتذكَّر قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ [النمل: 81]، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: 272]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: 56]، هذه هداية التَّوفيق والقبول حجبها الله - عزَّ وجلَّ عنَّا -، هي إليه، لا يملكها أحد من خلقه، لا مَلَك مقرَّب ولا نبيٌّ مرسل ولا من دونهما من صالحي عباد الله والدُّعاة إلى الله، هذه هداية القبول، وأمَّا هداية الإرشاد فيؤتيها الله - سبحانه وتعالى - من كان عنده علم وفقه في دين الله وحسن دعوة إلى الله على بصيرة، وهذه ذكرها في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى]، تهدي يعني تبيِّن وتدلُّ، فإذا تذكَّرنا أنَّ من قبلنا ابتلي، ابتلي النَّبيُّ ﷺ وابتلي الدُّعاة إلى الله على بصيرة بعده، قال ﷺ: «**يُبْتَلَى الْمَرْءُ عَلَى قَدْرِ دِينِهِ، فَأَشَدُّ النَّاسِ بَلاءً الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ**»، وهذه - ولله الحمد - ما سمعنا بها، وصف دعاة السُّنَّة والأثر بأنَّهم غلاة إلاَّ من المنحرفين وأذنابهم، يسمُّون الرُّدود غلوًّا، ويسمُّون جرح المجروحين غلوًّا، والجرح والتَّعديل من دين الله، من الدَّعوة إلى الله عزَّ وجلَّ، هو من طرق الدَّعوة إلى الله، ومن نظر في كتب التَّراجم نظرة مسترسل عرف ذلك، ومقصدهم ما ذكرتم أنَّهم ينفِّرون من أهل السُّنَّة، وكذلك فتح الباب للمبتدعة حتَّى لا يُرَد عليهم ولا يقبل أهل السُّنَّة قول أهل العلم في أهل الأهواء، لكن يأبى الله - سبحانه وتعالى - إلاَّ أن يتمَّ نوره، ويقيم حجَّته، وعلينا أن لا نعجل، وأن نستمرَّ في دعوتنا، عليك بطرق الهدى ولا يضرُّك قلَّة السَّالكين، وإيَّاك وطرق الضَّلالة ولا تغترَّ بكثرة الهالكين.

◘ هل من نصيحة موجزة توجِّهونها - فضيلة الشَّيخ - إلى بقايا التَّكفير والإرهاب الَّتي لا تزال تمارس شيئًا من نشاطها، إمَّا عن طريق الفكر، وإمَّا عن طريق العمل المسلَّح، هل من نصيحة تسدونها إليهم؟

هؤلاء خوارج، سلفهم أوَّلاً ذو الخويصرة التَّميمي ثمَّ السَّبئيَّة ثمَّ أهل النَّهروان، وليس لهم من إمام هو سلف لهم، ما يروى عن الحسن البصري وغيره هم رجعوا عنه، تبيَّن لهم الحقُّ، فإن كانوا يعقلون فليرجعوا، هذا أمر.

والأمر الآخر: هم يستحلُّون دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم، والشَّيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله يكفِّرهم في غير ما موطن، كفَّر هؤلاء الخوارج، وأنا أميل إلى هذا، لكن لم أجْرُؤ عليه حتَّى السَّاعة.

المقصود: المتَّفق عليه أنَّهم على ضلال، وأنَّ نهجهم فاسد ومسلكهم باطل، فإذا أرادوا السَّلامة لأنفسهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم فليعودوا إلى مذهب السَّلف الصَّالح، فليعودوا إلى السُّنَّة، إلى الكتاب والسُّنَّة وعلى فهم السَّلف الصَّالح؛ لأنَّ السَّلف الصَّالح هم كلُّ من مضى بعد رسول الله ﷺ على أثره، وأساسهم الصَّحابة، ثمَّ أيضًا أئمَّة التَّابعين مثل سعيد ابن المسيِّب وعروة بن الزُّبير وأبي العالية الرِّياحي وعامر الشَّعبي، ومن بعدهم مثل الإمام مالك والشَّافعي وأحمد ومن بعدهم من الأئمَّة، ليسوا هم على ما عليه هؤلاء، ولكن إذا غلبت الشِّقوة واستسلم المرء للبدع فلا حيلة، نحن ليست عندنا حيلة نردُّ بها هؤلاء، إلاَّ النَّصائح.

والحمد لله، لمَّا حصل ما حصل في قطركم نفع الله بأشرطة العلماء وطلاَّب العلم، نزل أناس كثر من هؤلاء، تركوا مواقعهم في الجبال والغابات والشِّعاب وانضمُّوا إلى جماعة المسلمين في البلد، وهذا - أيضًا - لو كانت البقيَّة الباقية عاقلة لأفادت من هذا، ولله الحمد.

فنسأل الله أن يعجِّل هداية من كان فيه خير منهم، ويردَّه إلى الصَّواب ردًّا جميلاً، ومن ليس فيه خير نسأل الله أن يعجِّل بهلاكه ويكفينا شرَّه بما شاء.

▣ بارك الله فيك شيخنا، شيخنا هل من نصيحة لأهل بلدنا وولاة الأمور عندنا.

نحن أوَّلاً، وأعني أهل السُّنَّة ونحن منهم ولا فخر، أنَّنا لا نقرُّ أحدًا على معصيته، سواء كان حاكمًا أو محكومًا.

وثانيًا: نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة.

وثالثًا: إن كانت المعصية من وليِّ الأمر في نفسه أو من غيره مقرًّا لها، فأهلُ السُّنَّة لهم أربعة مواقف:

الموقف الأوَّل: التَّرغيب في الطَّاعات والتَّحذير من المعاصي وبيان خطرها وفشوها في البلد، وفق الدَّليل الشَّرعي دون مَسَاس بكرامة الآخرين، فلو أنَّ الدَّاعي قال في شارع كذا بجوار بيت كذا، هذه فضيحة وليست نصيحة، بل بعض الدُّعاة يصدر من أفواههم ما هو إشاعة للفاحشة، يذكرون أماكن الدَّعارة، أماكن الخمَّارات، فمن كان غافلاً عنها عرفها، والعقلاء لا يرضون هذا.

الثَّاني: بعض ما يصدر من وليِّ الأمر من معصية، سواء منه فعلاً أو إقرارًا، يبغضونها، ويمقتونها، ويعتقدون أنَّ وليَّ الأمر هذا مخطئ، لكن لا يشنِّعون عليه عَلَنًا، ولا يظهرون الشَّناعة عليه، ولا يشيعون خطأه ولا يشهرون به في المحافل، سواء كانت إعلاميَّة كالتِّلفزة والصَّحافة والإذاعة، أو علمية كالخطب والمحاضرات والنَّدوات.

الموقف الثَّالث: أنَّهم يدعون النَّاس إلى جمع الكلمة على من ولاَّه الله أمرهم من المسلمين، ويشدِّدون عليهم في عدم الخروج عليه، فهم يصلُّون خلف من ولاَّهم الله أمرهم أو نوَّابهم أبرارًا كانوا أو فجَّارًا، فيعتقدون أنَّ من خصائصه الجهاد، ومن خصائصه الحجّ، ومن خصائصه إقامة الجمعة، مهما يكن حاله.

الموقف الرَّابع: النَّصيحة له سرًّا: مشافهة وفي سريَّة، حتَّى عن أقرب النَّاس إليه إن أمكن، قال ﷺ: «**مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لِذِي سُلْطَانٍ فَلاَ يُبْدِه عَلاَنِيَةً، وَلْيَخْلُ بِه وَلْيَأْخُذْ بِيَدِه فَإِنْ قَبِلَ مِنْهُ فَذَاكَ وَإِلاَّ كَانَ قَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ لَهُ**».

وبهذا يتبيَّن أمور:

أوَّلاً: أنَّ ما يسلكه بعض من ينتسبون إلى الدَّعوة من التَّشهير بأخطاء الحاكم والتَّشنيع عليه علنًا، هذا خطأ، وليس من السُّنَّة في شيء، بل هو مسلك أهل الأهواء، ويسمِّيهم العلماء القدامى: الخوارج القعديَّة أو القاعديَّة.

ثانيًا: النَّصيحة سرًّيًّا.

وثالثًا: براءة الذِّمَّة بالنَّصيحة على هذا الوجه الَّذي جاء به الحديث، وأنَّه لا وجه آخر ولا سبيل آخر يسلكه النَّاصح، إذ لو كان سبيل آخر لبيَّنه النَّبيُّ ﷺ.

▣ جزاكم الله خيرًا شيخنا ونفع بكم.

هل من نصيحة توجِّهونها إلى بعض الأخوات في الجزائر لتشجيعهنَّ على طلب العلم، وما هي السُّبل للإسهام والمشاركة في الدَّعوة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لأنَّهنَّ «شَقَائِقُ الرِّجَالِ» كما قال ﷺ.

المرأة عليها أوَّلاً أن تتعلَّم، تجتهد في تحصيل ما يتيسَّر لها من العلم، وإن كان المتيسَّر لها أقل ممَّا يتيسَّر للرِّجال، لكنَّها تستعين بالله وتسلك ما يتيسَّر لها من السُّبل النَّافعة في تحصيل العلم الشَّرعي، والفقه في دين الله.

الثَّاني: أن تقصر دعوتها على بنات جنسها، ولا تعرض نفسها لمخاصمة الرِّجال، ومناطحتهم بالكلام في الصَّحافة أو في الأنترنت أو في غير ذلك، تقصر مهمَّتها على بنات جنسها، وقد عرفنا أنَّ بعض الرِّجال إذا عرضت امرأة نفسها للخصومة، أقذع فيها بالكلام الفاحش، ولربَّما تعرَّض لعرضها، خدش بكرامتها، وهذا كثير من أهل الأهواء ومن المتفحِّشين.

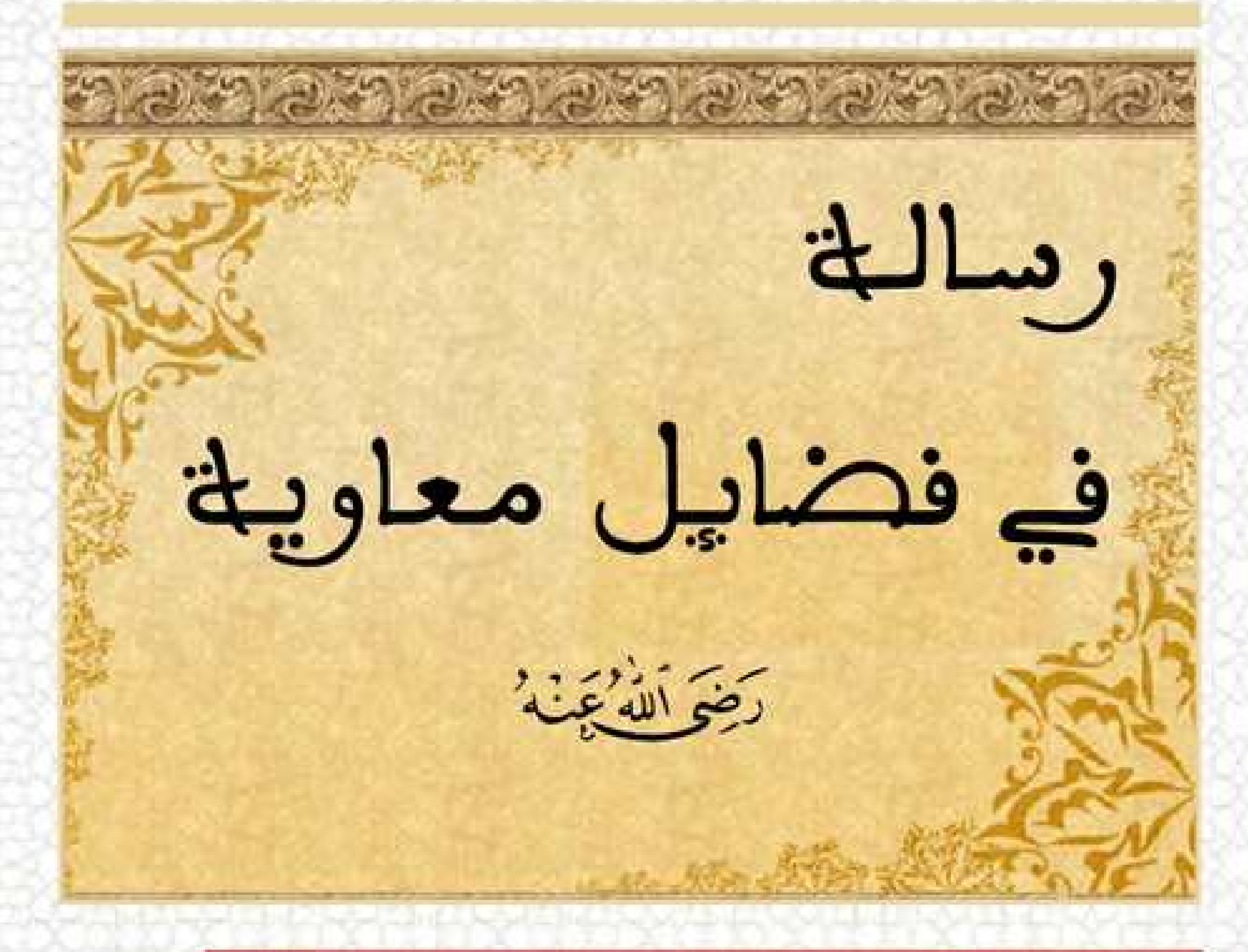
نصيحتي لبناتنا أن لا يُنْشِئْنَ نوادي في النَّت، أو نوادي نسائيَّة، أنا أقول: ثبت عندي أنَّها غير مأمونة، فلربَّما دخلت امرأة مريضة داعية إلى فجور أو بدعة ولربَّما دخل رجل مريض القلب بكنية امرأة، تقصر دعوتها على بنات جنسها فيما يقدِّرها الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليه، ولا تحاول أن تسلك مسالك الرِّجال، ومن هنا ما علم أنَّ امرأة من الصَّحابيَّات الفاضلات ومن أمَّهات المؤمنين ولا مَن بعدهن من التَّابعيَّات الخيِّرات أنَّهن يسافرن ويرحلن من أجل الدَّعوة، أنا ما علمت هذا، هل تعلمون به مشائخ؟ أنا حتَّى السَّاعة لا أعلم، ولهذا أنا لا أنصح بناتنا في الجزائر وفي غيرها أن يتجوَّلن للدَّعوة.

نعم؛ إذا زارت أقارب لها في مكان في منطقة وجلست في بيت واحدة أو في المسجد يأتيها بنات جنسها ويتعلَّمن منها هذا لا بأس، أمَّا أنَّها تشدُّ الرِّحال كما يشدُّ الرَّجل فلا، نعم لو سافرت برفقة زوجها إلى مكان للدَّعوة، فهو يكون مع الرِّجال وهي مع النِّساء، هذا لا مانع منه، أمَّا أن تذهب هي بنفسها راحلة إلى الدَّعوة مستقلَّة، هذا لا أعلم له نظيرًا في عهد الأئمَّة والسَّلفيَّات من النِّساء.

▣ أحسن الله إليك شيخنا وبارك الله فيكم، وبارك الله في عمركم وجهودكم.

جزاكم الله خيرًا، شكَّارون، وجمعنا الله في دار كرامته كما جمعنا على طاعته، وهيَّأ الله لنا من يكمل الرُّشد من أمرنا، وأعاننا على ما ننشر به الدَّعوة على الله إلى بصيرة..

من فوائد الشَّيخ محمَّد حياة السِّندي المَدَنيّ:



اعتنى بها: سمير سمراد
إمام خطيب . الجزائر

فهذه رسالةٌ أخرى من رسائل المحدِّث الشَّيخ محمَّد حياة ابن إبراهيم السِّندي، نزيل مدينة الرَّسول ﷺ (المتوفَّى سنة 1163هـ)، وهي ـ فيما يظهرُ ـ من إملاءاته الَّتي كان يُمليها على الطَّلبة والمستفيدين، أو تكون من تقييداتِ مَنْ كان حَضَرَ مجالسه في الإقراء والتَّدريس؛ ففي آخرها: «من فوائد الشَّيخ محمَّد حياة السِّندي المدني جزاه الله خير الجزاء» اهـ.

❑ **وموضوعها:**

ذِكْرُ فضائل الصَّحابيِّ الجليل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

وهذه الرِّسالة ـ أو الإملاءُ ـ حلقةٌ تُضافُ إلى سلسلة جهود علماء الحديث في الذَّبِّ عن الصَّحابة الأخيار رضي الله عنهم، ونشر فضائلهم، وحفظ مقامهم، والذَّوْد عن حُرْمَتِهم، وقد وَقَعَ فيهم الرَّافضة الأشرار سَبًّا وطَعْنًا، ورَمَوْهُم بكلِّ نقيصة، وجَرَّدوهم من كلِّ فضيلة،عاملهم الله بما يستحقُّون.

ولم يكن الشَّيخ محمَّد حياة ليُخْلِيَ مؤلَّفاته ورسائلَهُ من التَّذكير بمقام الصَّحْب وتشنيع جريمة الرَّفْض عند كلِّ فرصة تَسْنَحُ لَهُ؛ ففي شرحه على «مقدِّمة في العقائد» [مخطوطا]؛ من وَضْعِ بعض علماء المدينة، وعند قوله في أوَّلها: «وصَحْبِه أجمعين»، قال: «[وَصَحْبِه]: الَّذين فَازُوا بصُحْبَته [أجمعين]: وفي هذا ردٌّ على بعض المبتدِعة الَّذين يبغضون زُبْدَةَ الصَّحابة» اهـ.

❑ **مصدرُ الرِّسالة:**

هذه الرِّسالة من محفوظات جامعة أمِّ القرى بمكَّة المكرَّمة، رقمها: (2712/17)، وقد حصَّلتُ عليها مِنْ «مكتبة الملك عبد الله بن عبد العزيز الرَّقميَّة»:

❑ **عدد الأوراق:** نَحْوُ ورقتين (88 ـ 89 ـ 90).

❑ **عدد الأسطر:** 14 سطرًا.

❑ **الحجم:** (20ـ15) سم.

❑ **الخطُّ:** نسخي.

❑ **تنبيهاتٌ حول الرِّسالة:**

○ لا يُنقِصُ من قيمة الرِّسالة كونُ المؤلِّف رحمه الله ساق روايات في فضل معاوية في بعضها ضعفٌ أو نكارة، وقد ساق مثلَها الحافظُ الذَّهبيُّ في «السِّير» (127/3)، وقال على أثرها: «فهذه أحاديثُ مُقَارِبَة»، ومثلُهُ الحافظ ابن كثير في «تاريخه» (131/8) فإنَّهُ قوَّاها، إذْ قال: «ثمَّ ساق ابن عساكر أحاديث كثيرة موضوعة بلا شكٍّ في فضل معاوية، أَضْرَبْنا عنها صفحًا، واكتفينا بما أوردناه من الأحاديث الصِّحاح والحِسَان والمسْتَجَادات عمَّا سواها من الموضوعات والمنكَرات» اهـ.

وغالبُ أحاديث هذه الرِّسالة الَّتي بين أيدينا هو ممَّا أورده الذَّهبيُّ وابن كثير، وليس فيها من الأحاديث المنكَرَة والأحاديث الواهية الباطلة، سوى حديثين أو ثلاثة سيقفُ القارئُ في التَّخريجات على نَكَارَتها، وما تبقَّى هو من قبيل الصَّحيح والحسن والضَّعيف المُقارِب، والله أعلم.

○ يغلب على الظَّنِّ أنَّ الأحكام الواردة في الرِّسالة على الأحاديث والآثار استفادها المؤلِّفُ أو استفادَ أكثَرَها من الحافظ الهيثمي في «مجمع الزَّوائد»، والله أعلم.

○ في بعض تعابير الرِّسالة شيءٌ من الخَلَل، والظَّاهرُ أَنَّ منشأَ ذلك من مُقَيِّدِ هذه الفوائد!

نصُّ الرِّسالة:

رسالةٌ في فضائل مُعاوية ـ رضي الله تعالى عنه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

روى الإمام أحمد في «مسنده» بإسنادٍ لا بأس به إن شاء الله أنَّه: قال رسول الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الكِتَابَ وَالحِسَابَ وَقِهِ العَذَابَ**»[1].

روى الطَّبراني في «الأوسط» بسندٍ ضعيفٍ عنه ﷺ أنَّه قال في حقِّه: «**اللَّهُمَّ اهْدِهِ [بِالهُدَى]**[2] **وَجَنِّبْهُ الرَّدَى وَاغْفِرْ لَهُ فِي الآخِرَةِ وَالأُولَى**»[3].

وروى البزَّار والطَّبراني رجال ثقات ـ إلاَّ واحدًا ففيه خلاف[4] ـ أنَّه ﷺ قال: «**أَشْهِدُوا مُعَاوِيَةَ أَمْرَكُمْ، فَإِنَّهُ قَوِيٌّ أَمِينٌ**»[5].

وروى الطَّبراني بإسنادٍ لا يخلو عن اختلال[6] أنَّه ﷺ قال لمعاوية: «**اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الكِتَابَ وَالحِسَابَ [وَمَكِّنْ لَهُ]**[7] **فِي البِلَادِ**»، «**وَقِهِ سُوءَ العَذَابِ**»[8].

روى الطَّبراني في «الأوسط» بسندٍ لا يخلو عن خَلَلٍ[9]: جاء جبرائيل عليه السلام إلى النَّبيِّ ﷺ، فقال: «**يَا مُحَمَّدُ! اسْتَوْصِ مُعَاوِيَةَ**[10]**، فَإِنَّهُ أَمِينٌ عَلَى كِتَابِ اللهِ تَعَالَى وَنِعْمَ [الأَمِينُ]**[11] **هُوَ**».

وروى الطَّبراني بسندٍ فيه من لا يُعرف[12] (...)[13] قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ يُحِبَّانِ مُعَاوِيَةَ**».

وروى الطَّبراني بسندٍ فيه مختلِط[14] عن عوف بن مالك

---

(1) صحيحٌ بشواهده: أحمد في «المسند» (17152)، والطَّبراني في «الكبير» (628) من مسند العرباض بن سارية رضي الله عنه.
قال العلاَّمة الألباني في «الصَّحيحة» (3227): «وهذا إسنادٌ حسنٌ في الشَّواهد، رجاله ثقات، غير الحارث ابن زياد؛ فإنَّه مجهول لم يوثِّقه غير ابن حبَّان» اهـ، وقد صحَّحه رحمه الله وقوَّاهُ لشواهده، وانظر «السِّير» للذَّهبي (124/3).

(2) ساقطة من المخطوطة واستدركتها من «الأوسط».

(3) إسنادٌ ضعيفٌ جدًّا: الطَّبراني في «الأوسط» (1838) من حديث عائشة رضي الله عنها، وقال: «لم يَرْوِ هذا الحديث عن هشام إلاَّ عبدُ الله بن يحيى، تفرَّد به السَّريُّ» اهـ، وقال الهيثمي في «مجمع الزَّوائد» (593/9): «وفيه السَّريِّ بن عاصم وهو ضعيف» اهـ.
قُلْتُ: السَّريّ بن عاصم الهمداني، ضعيفٌ جدًّا، متَّهمٌ بالوضع والكذب. انظر: «الميزان» للذَّهبي (117/2)، و«لسان الميزان» لابن حجر (12/3).

(4) مُنْكَرٌ: البزَّار في «المسند» (3507 ـ البحر الزَّخَّار)، والطَّبراني في «مسند الشَّاميِّين» (1110)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (86/59) من مسند عبد الله بن بسر رضي الله عنه، قال الهيثمي في «مجمع الزَّوائد» (594/9): «...رجالهما ثقات، وفي بعضهم خلاف...، ومع ذلك فهو حديثٌ مُنْكَرٌ، والله أعلم»، وذهب أبو حاتم كما في «العلل» لابنه (373/2) إلى أنَّ الرَّاجح فيه أنَّه مرسلٌ وأنَّ الوَصْلَ تَفَرَّد به نعيم بن حمَّاد، ونعيم مختلفٌ فيه، ولعلَّ السِّنديّ يعنيه بقوله: «إلاَّ واحدًا ففيه خلافٌ» اهـ، وممَّا تكلَّموا به فيه ما قاله أبو زرعة الدِّمشقيّ: «وصل أحاديثَ يُوقِفُها النَّاس» اهـ، وقال الحافظ في «التَّقريب»: «صدوقٌ يُخطئُ كثيرًا» اهـ.
انظر: «المغني في الضُّعفاء» للذَّهبي (700/2)، وتحقيق الشَّيخ حمدي على «مسند الشَّاميِّين» (161/2).

(5) كذا في المخطوطة ولعلَّ العبَارة: «وَرِجالُ السَّنَد ثقات».

(6) **صحيحٌ لشواهده، غير لفظة: «ومكِّن له في البلاد» فمُنْكَرَةٌ**: الطَّبراني في «المعجم الكبير» (439/19)، من مسند مسلمة بن مخلد الأنصاري رضي الله عنه، وفيه جبلةُ ابن عطيَّة، قال الهيثمي في «مجمع الزَّوائد» (594/9 ـ 595): «وجَبَلَةُ لم يسمع من مسلمة فهو مرسلٌ، ورجالُهُ وُثِّقوا وفيهم خلافٌ» اهـ.
قُلْتُ: ولعلَّ الاختلال الَّذي يعنيه السِّنديّ ما جاء في بعض أسانيده ـ كما في «فضائل الصَّحابة» لأحمد بن حنبل (1750)، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (78/59) ـ: «جبلة بن عطيَّة عن مسلمة بن مخلد أو عن رجل عن مسلمة ابن مخلد»، ورجَّح العلاَّمة الألباني في «الصَّحيحة» (3227) إعلالَ الإسناد بالرَّجل الَّذي لم يُسمَّ، فهو مجهولٌ، وقال الذَّهبي في «السِّير» (125/3): «فيه رجلٌ مجهولٌ، وجاء نحوه من مراسيل الزُّهري ومراسيل عروة بن رويم وحريز ابن عثمان»، وقال في «الميزان» (388/1) في ترجمة جَبَلَة: «والخَبَرُ مُنْكَرٌ بمرَّة» اهـ، ثمَّ ساق هذا الحديث =

= قلتُ: تلك المراسيل شواهدُ للَّفظ الآخر، وليس فيه: «**ومَكِّنْ له في البلاد**»، راجع «تاريخ ابن عساكر» (79/59)، و«الصَّحيحة» (3227).

(7) في المخطوطة: «**مَكِّنْهُ في البلاد**»، والتَّصحيح من كتب التخريج.

(8) هذه الجملةُ وَرَدَتْ في المخطوطة في سياق واحد مع ما قبلَها، وإنَّما هي روايةٌ أخرى عند الطَّبراني (439/19) بلفظ: «**اللَّهُمَّ مَكِّنْ لَهُ فِي البِلَادِ وَقِهِ سُوءَ العَذَابِ**».

(9) ضَعيفٌ: الطَّبراني في «الأوسط» (3902) من مسند عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما، قال الهيثمي في «مجمع الزَّوائد» (595/9): «وفيه محمَّد بن فطر ولم أعرفه، وعلي بن سعيد الرَّازي فيه لين، وبقيَّة رجاله رجال الصَّحيح» اهـ.
قلتُ: لعلَّ الصَّواب في (محمَّد بن فطر) أنَّه (محمَّد بن قطن الرَّملي)، كما في «الأوسط»، وكلاهما لم أجِدْ لهُ ترجمةً! وعليُّ بن سعيد قال فيه الدَّارقطني: «حدَّث بأحاديث لم يُتابع عليها». انظر: «المغني في الضُّعفاء» للذَّهبي (448/2)، و«سير النُّبلاء» (145/14 ـ 146)، وفيه أيضًا: عبد الملك بن أبي سليمان، قال في «التَّقريب»: «صدوقٌ له أوهام».

(10) في المخطوطة: «استوص لمعاوية»، والتَّصحيح من المصادر.

(11) في المخطوطة: «نِعْمَ الأمير»، والتَّصحيح من المصادر.

(12) ضَعيفٌ: ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (89/59) من طريق الطَّبراني ـ ولم أجِده عندهُ في المطبوع من معاجمه ومن «مسند الشَّاميِّين»! ـ وغيره، من مسند أبي موسى الأشعريّ رضي الله عنه، قال الهيثمي في «مجمع الزَّوائد» (595/9): «رواه الطبراني وفيه من لم أعرفهم» اهـ.
قُلْتُ: يُريدُ عبد الله بن بكَّار الأشعري، قال العقيلي في «الضُّعفاء الكبير» (237/2): «مجهولٌ في النَّسب والرِّواية حديثُهُ غير محفوظ»، وساق هذا الحديث، ونقل كلامه الذَّهبي في «الميزان» (398/2)، والحافظ في «اللِّسان» (263/3)، وجاء في آخر ما نقلَ الذَّهبيُّ: «فهذا غير صحيح» اهـ، ولعلَّ الهيثمي يُريدُ أيضًا: بشر بن بشَّار السِّمسار؛ الرَّاوي عن عبد الله بن بكَّار، ترجم له الخطيب في «تاريخ بغداد» (84/7 ـ العلميَّة)، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلاً.

(13) كلمةٌ في المخطوطة لم أتبيَّنْ ما هي!

(14) مُنْكَرٌ: الطَّبراني في «الكبير» (307/19)، والبغدادي في «تلخيص المتشابه في الرَّسم» (159)، قال الهيثمي في «مجمع الزَّوائد» (596/9): «فيه أبو بكر ابن أبي مريم وقد اختلط» اهـ.
قُلْتُ: ابن أبي مريم ضعَّفه أبو داود كما في «اللِّسان» (516/7)، والرَّاوي عنه: محمَّد بن حبيب الخولانيّ، قال الذَّهبيُّ في «المغني» (565/2): «محمَّد بن حبيب الخولاني عن أبي بكر بن أبي مريم الغسَّاني له حديثٌ وهو منكرٌ»، ومثله في «اللِّسان» (115/5)، لكنَّه قال: «أتى بخبرٍ باطل» اهـ، لكن يبدو أنَّ الآفة من ابن أبي مريم، فقد روى الخبر ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (106/59)، والآجرِّي في «الشَّريعة» (1865) من طريق: محمَّد بن حرب ـ وعند الآجري التَّصريح بأنَّه: محمَّد بن حرب الأبرش الحمصي ـ عن أبي بكر بن أبي مريم، ومحمَّد بن حرب هذا ثقةٌ كما في «التَّقريب».
تنبيهٌ: ساق ابن عساكر الخبر بإسنادين أحدهما من طريق الطَّبراني المتقدِّمة، لكن ورد في مطبوعة «تاريخ دمشق»: «محمَّد بن حرب الخولاني»، وعلَّق المحقِّق بأنَّها تحرَّفت في مطبوعة «المعجم الكبير» إلى «محمَّد بن حبيب»! والَّذي يبدو أنَّ التَّحريف في مطبوعة «تاريخ دمشق»، وأنَّ ابن عساكر ساقه من طريق محمَّد بن حرب ومن

أنَّه رأى في المنام أنَّ معاوية من أهل الجنَّة.

▣ وروى الطَّبراني بسند ضعيف[15] عن الأعمش قال: «**لَوْ رَأَيْتُمْ مُعَاوِيَةَ لَقُلْتُمْ هَذَا المَهْدِي**».

▣ وروى الطَّبراني بسندٍ وُثِّقَ رواتُه وفي بعضهم خلافٌ[16] عن عليٍّ رضي الله عنه أنَّه قال: «**قَتْلايَ وَقَتْلَى مُعَاوِيَةَ فِي الجَنَّةِ**».

▣ وروى الطَّبراني بسند رجاله رجال الصَّحيح إلاَّ واحدًا وهو ثقة[17] عن أبي الدَّرداء قال: «**ما رأيتُ أحدًا بعد رسول الله ﷺ أشبه صلاةً برسول الله ﷺ من أحدكم هذا**[18]» يعني معاوية رضي الله عنه.

▣ وأخرج البخاري في «صحيحه» عن ابن عبَّاس رضي الله عنه أنَّه قال في حقِّ معاوية: إنَّه فقيهٌ[19]، وإنَّه صَحِبَ النَّبيَّ ﷺ[20].

▣ وأخرج أيضًا[21] أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال في حقِّ الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما: «**إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، لَعَلَّ اللهَ يُصْلِحُ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ المُسْلِمِينَ**»، وقد وقع الصُّلح بين معاوية رضي الله عنه وجماعته وبين الحسن رضي الله عنه وجماعته، فهذه شهادةٌ منه ﷺ بإسلام فئة معاوية وهو رئيسها.

▣ وأخرج مسلمٌ[22] أنَّه قال رسول الله ﷺ: «**تَمْرُقُ مَارِقَةٌ [عِنْدَ فُرْقَةٍ]**[23] **مِنَ المُسْلِمِينَ يَقْتُلُهَا أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالحَقِّ**»، وفي رواية: «**أَقْرَبُ الطَّائِفَتَيْنِ مِنَ الحَقِّ**».

قلتُ: والطَّائفة المارقةُ هم الخوارج الَّذين خرجوا على عليٍّ رضي الله عنه، فَقَتَلَ بعضهم، وطائفتُهُ أَوْلَى الطَّائفتين بالحقِّ، والطَّائفة الثَّانية طائفةُ معاوية رضي الله عنه.

فهذا يدلُّ على أنَّ معاوية رضي الله عنه وطائفتَهُ قريبون من الحقِّ، وعليٌّ رضي الله عنه وجماعتُه أقربُ منهم إليه.

طريق الطَّبراني الَّتي فيها: محمَّد ابن حبيب، والله أعلم، ووجه النَّكارة أو البطلان في الخبر ما ورد في الرِّواية: «انْتَبَهَ عوف بن مالك من نومته فإذا معه في البيت أَسَدٌ يمشي إليه، فقام فزعًا إلى سلاحه، فقال له الأسد: مَهْ! إنَّما أرسلت إليك برسالة لتبلغها...»، ولذلك قال الحافظ ابن كثير في «البداية» (132/8) عقب ذكره سياق ابن عساكر: «وفيه ضعفٌ وهذا غريبٌ جدًّا، ولعلَّ الجميع منامًا، ويكون قوله: إذ انتبهتُ من نومي مُدْرَجًا لم يضبطْهُ ابن أبي مريم، والله أعلم» اهـ.
قلتُ: والظَّاهر أنَّهُ هو الخَبَرُ المنكرُ أو الباطل الَّذي أشار إليه الحافظان الذَّهبي وابن حجر.

(15) إسنادٌ ضعيفٌ كما قال، والأَثَرُ صحيحٌ لشواهده: الطَّبراني في «المعجم الكبير» (308/19)، قال الهيثمي في «مجمع الزَّوائد» (596/9): «رواه الطَّبراني مرسلاً، وفيه يحيى الحماني وهو ضعيف» اهـ.
قُلْتُ: الَّذي في إسناد الطَّبرانيِّ: أبو يحيى الحماني وهو عبد الحميد بن عبد الرحمن، قال عنه الحافظ: «صدوقٌ يخطئ ورُمي بالإرجاء»، وقد رُوي من طرق أخرى عن الأعمش عن مجاهد: رواه الخلاَّل في «السُّنَّة» (669) من طريق محمَّد ابن سليمان بن هشام عن أبي معاوية الضَّرير عن الأعمش عن مجاهد به، ومحمَّد ابن سليمان ضعيف كما في «التَّقريب»، ورواه الآجري في «الشَّريعة» (2010 ـ سيف النَّصر) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (172/59) من طريق حسين بن علي ابن الأسود العجلي عن عبد الله بن نمير عن الأعمش عن مجاهد به، وحسين بن علي صدوق يخطئ كثيرًا، كما في «التَّقريب»، ورواه عليّ بن عمر الحربي في «الفوائد المنتقاة عن الشُّيوخ العوالي» (92) ومن طريقه: ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (172/59) عن محمَّد بن سليمان بن هشام عن ابن نمير عن الأعمش عن مجاهد به، وقد تقدَّم ضعف محمَّد بن سليمان، وقال ابن تيميَّة في «المنهاج» (143/6): «وكذلك رواه ابن بطَّة بإسناده الثَّابت من وجهين عن الأعمش عن مجاهد».
قُلْتُ: فالأثرُ صحيحٌ لهذه الطّرق إلى الأعمش، لكنّه يُدلِّس ولم يسمع من مجاهد إلاّ أحاديث يسيرة. وللأثر شاهدٌ رواه الخلاّل في «السّنّة» (668) من طريق عمر ابن جبلة [ولعلَّ صوابه: محمَّد بن عمرو بن جبلة فهو الَّذي يروي عن محمَّد بن مروان العقيلي، وقد جاء كذلك عند ابن بطَّة، ذكرَ إسنادَه ابن تيميَّة في «المنهاج» (143/6)] عن محمَّد بن مروان عن يونس عن قتادة قال: «**لو أصبحتم في مثل عمل معاوية لقال أكثرُكُمْ هذا المهدي**».
قُلْتُ: محمَّد بن عمرو بن جبلة صدوقٌ كما في «التَّقريب»، ومحمَّد بن مروان هو العقيلي العجلي، صدوقٌ له أوهامٌ كما في «التَّقريب»، ويونس هو ابن أبي الفرات ثقةٌ كما في «التَّقريب»، فهو شاهدٌ حَسَنٌ لأثر مجاهد، والله أعلم.

(16) صَحيحٌ: الطَّبراني في «المعجم الكبير» (307/19)، قال الهيثمي في «مجمع الزَّوائد» (596/9): «ورجاله وُثِّقُوا وفي بعضهم خلافٌ» اهـ.
قُلْتُ: هو من طريق الحسين بن أبي السّريّ عن زيد بن أبي الزَّرقاء عن جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصمّ عن عليّ، ولعلَّ الهيثمي يعني بمن وقع فيهم الخلاف: زيد بن أبي الزَّرقاء، فقد وثَّقَه جماعةٌ، وذكره ابن حبَّان في «الثّقات» (251/8)، وقال: «يُغْرِب» اهـ، وأيضًا: جعفر بن برقان وثّقه جماعةٌ، وذكر الذَّهبيّ في «المغني» (131/1) عن ابن خزيمة أنَّه قال فيه: «لا يحتجُّ به»، وقال في «التَّقريب»: «صدوقٌ يَهِمُ في حديث الزُّهري»، لكنَّهم قالوا أحاديثُه مستقيمة وهو ضابطٌ لحديث يزيد ابن الأصمّ وغيره، وروايتُهُ هنا عن يزيد، انظر: «بحر الدّم» (ص34)، وفي إسناد الطَّبراني أيضًا: الحسين بن أبي السّريّ، ضعَّفه أبو داود، وكَذَّبَهُ أخوه محمَّد بن أبي السّريّ وأبو عروبة الحرّاني، وقال ابن حبَّان في «الثّقات»: «يُخطئُ ويُغربُ»، وقال في «التَّقريب»: «ضعيف» اهـ، انظر: «الميزان» (536/1)، لكن له مُتَابِعٌ، وهو ما رواه ابن أبي شيبة في «المصنَّف» (302/15) عن عمر بن أيّوب الموصليّ عن جعفر بن برقان به، ولفظُهُ: «سُئِل عليٌّ عن قتلى يوم صفِّين، فقال: قتلانا وقتلاهم في الجنَّة..» اهـ، وهو إسنادٌ صحيحٌ يُغني عن طريق الطَّبرانيّ. =

= وقد رواه أيضًا بنحوه ابنُ عساكر في «تاريخ دمشق» (139/59) من طريق إبراهيم ابن أحمد بن محمَّد الأنصاري عن سعيد ابن يحيى بن سعيد عن خالد بن يحيى الرقي عن جعفر بن برقان به، وفي آخره أنَّ عليًّا رفعه إلى النَّبيِّ ﷺ، فقال: «هكذا أخبرني حبيبي رسول الله ﷺ»، وهذا لا يصحُّ، فإنَّ إبراهيم «كان غير ثقة»، قاله الخطيب كما في «الميزان» (17/1)، وسعيد ثقةٌ ربَّما أخطأ كما في «التَّقريب»، وخالدٌ فيه لين وهو صدوق، كما قال الذَّهبي في «الكاشف» (363/1)، وقال في «التَّقريب»: «صدوقٌ يخطئ»، وفي «تهذيب التَّهذيب» (74/3) أنَّ ابن خزيمة استنكر عليه أحاديث، وفي «تهذيب الكمال» (43/8) عن الإمام أحمد في رواية الأثرم أنَّه «كان يروي عن جعفر غرائب»، فلعلَّ آفة رفع الحديث منه، والله أعلم.

(17) صَحيحٌ: الطَّبراني في «مسند الشَّاميِّين» (282 و283)، قال الهيثمي في «مجمع الزَّوائد» (595/9): «رجاله رجال الصَّحيح، غير قيس بن الحارث المذحجي وهو ثقة» اهـ.

(18) عند الطَّبراني: «**من أميركم هذا، يعني معاوية**».

(19) البخاريّ (3765)، كتاب فضائل الصَّحابة، باب ذكر معاوية رضي الله عنه، عن ابن أبي مليكة: قيل لابن عبَّاس هل لك في أمير المؤمنين معاويةَ؟ فإنَّه ما أوترَ إلاَّ بواحدة، قال: أصابَ إنَّهُ فَقيهٌ.

(20) البخاريّ (3764)، كتاب فضائل الصَّحابة، باب ذكر معاوية رضي الله عنه، عن ابن أبي مليكة قال: أوتر معاويةُ بعد العشاء بركعة، وعنده مولًى لابن عبَّاس، فأتى ابنَ عبَّاس، فقال: دَعْهُ فإنَّهُ قد صحب رسول الله ﷺ.

(21) البخاريّ (2704)، كتاب الصُّلح، باب قول النَّبيِّ ﷺ للحسن ابن عليّ رضي الله عنه: «**ابني هذا سيِّد ولعلَّ الله أن يُصلح به بين فئتين عظيمتين...**».

(22) مسلمٌ (1065)، كتاب الزَّكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم.

(23) ساقطة من المخطوطة واستدركتها من مسلم.

◻ وأخرج التِّرمذيُّ[24] عن رسول الله ﷺ أنَّه قال لمعاوية: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا واهْدِ بِه**»، هذا حديثٌ حسن غريب[25].

◻ وأخرج[26] عن عمير[27] أنَّه قال: لا تذكروا معاوية إلاَّ بخير، فإنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ اهْدِه واهْدِ بِه**[28]».

قلتُ: هذا يدلُّ أنَّ هذا الصَّحابيَّ فهِمَ إجابة الدَّعوة من النَّبيِّ ﷺ في حقِّه، فَمَنَعَ مِنْ ذِكْرِه إلاَّ بخير، وهكذا ينبغي لمن كان يُؤمن بالله ورسوله ﷺ.

◻ وأخرج البخاري[29] عن أمِّ حرام أنَّها قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**أَوَّلُ جيش من أُمَّتي يَغْزُونَ البَحْرَ قَدْ أَوْجَبُوا**»، قالت أمُّ حرام ﵂: قلتُ: يا رسول الله! [ادع لي][30] أنا فيهم، قال: «**أنتِ فيهم**»، ثمَّ قال: «**أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أُمَّتي يَغْزُونَ مَدِينَةَ قَيْصَرَ مَغْفُورٌ لَهُمْ**»، فقلتُ: أنا فيهم يا رسول الله! قال: «**لا**»، وفي رواية له[31]: فخَرَجَتْ مع زوجها عبادة بن الصَّامت ﵁ غازيًا أوَّلَ ما ركب المسلمون البحر مع معاوية ﵁.

وقوله: «**أَوْجَبُوا**»، أي: الرِّضوان، أو الغفران، أو النَّجاة من النِّيران، أو الفوز بالجِنان، وكيف ما كان، فيه شهادةٌ في حقِّ معاوية وأصحابه الَّذين كانوا معه في تلك الغزوة، أنَّهم من أهل الجنَّة، وكفى بهذا شرفًا وبشارةً لمعاوية ﵁.

◻ ونُقِلَ[32] عن ابن المبارك أنَّه قال: «**وَاللهِ إنَّ الغُبَارَ الَّذي دَخَلَ أَنْفَ**[33] **فَرَسِ مُعَاوِيَةَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ أَفْضَلُ مِنْ عُمَرَ ابْنِ عَبْدِ العَزِيزِ بِأَلْفِ مَرَّةٍ**»[34].

فينبغي للمؤمن أن لا يَذْكُرَ معاوية وأمثالَهُ من الصَّحابة ـ رضي الله تعالى عنهم أجمعين ـ إلاَّ بخير، ومَنْ ذَكَرَهُم[35] بسُوءٍ تَجَانَفَ في حقِّه، أن يكون عَصمهُ الله تعالى ورسوله ﷺ[36]، وما يُروى عن الصَّحابة ﵃ ممَّا لا ينبغي صُدُورُهُ منهم مُفَوَّضٌ أمرُهُم في ذلك إلى أرحم الرَّاحمين؛ لأنَّهُ غفورٌ كريم.

⊙⊙⊙

مِنْ فوائد الشَّيخ محمَّد حياة السِّندي المدني جزاه الله خير الجزاء، تمَّت الرِّسالة.

---

(24) صَحيحٌ: التِّرمذيّ (3842)، من حديث عبد الرَّحمن بن أبي عَميرَة ﵁، قال العلاَّمة الألباني في «الصَّحيحة» (3227): «هذا إسنادٌ جيِّدٌ عندي... رجالُهُ ثقاتٌ رجالُ مسلم، غير ابن أبي عميرة؛ وهو صحابيٌّ كما جاء مصرَّحًا به في بعض الطّرق» اهـ، وقد حسَّنه التِّرمذيّ والجوزقاني في كتابه «الأباطيل» (193/1).

(25) هو قولُ أبي عيسى التِّرمذي، قال الألباني في «الصَّحيحة» (1969) مُعَقِّبًا على التِّرمذيّ: «وأقولُ: رجالُه كلُّهم ثقات رجال مسلم، فكان حقُّه أن يُصَحِّح...» اهـ.

(26) إسنادُهُ ضَعيفٌ جدًّا، والحديثُ صحيحٌ لشواهده: التِّرمذي (3843)، وسياقه: «... عن أبي إدريس الخولانيّ، قال: لمَّا عزل عمر بن الخطَّاب عمير بن سعد عن حمص ولَّى معاوية، فقال النَّاس: عزل عميرًا وولَّى معاويةَ، فقال عميرٌ: لا تذكرُوا معاويةَ إلاَّ بخير، فإنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **اللَّهمَّ اهْدِ به**»، قال التِّرمذيُّ عقبَهُ: «هذا حديثٌ غريب، وعمرُو بنُ واقد يُضَعَّف» اهـ، قال ابنُ كَثير في «البداية» (130/8): «وعمرو بن واقد ضعيف».

قُلتُ: عمرو بن واقد متروكٌ كما في «المغني» للذَّهبي (491/2) وفي «المقتنى في سرد الكنى» لهُ (190/1): «واه»، وقال البخاري في «التَّاريخ الكبير» (379/6) و«الضُّعفاء الصَّغير» (ص101): «منكرُ الحديث»، ومع ذلك قال العلاَّمة الألباني في «صحيح سنن التِّرمذي» (3019): «صحيحٌ بما قبله»، يعني أنَّه يتقوَّى بحديث عبد الرَّحمن بن أبي عميرة! ومعلومٌ أنَّ مثل هذا الإسناد لا يتقوَّى بغيره كما لا يُقوِّي غيرَه، يُغني عن هذه الرِّواية ما رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (86/59) وغيرُهُ من طريق الوليد بن سليمان قال: «إنَّ عمر ولَّى معاوية، فقالوا: ولاَّه حديث السِّنِّ، فقال: تلومونني، وأنا سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا وَاهْدِ بِهِ**»، قال الذَّهبي في «السِّير» (126/3): «هذا منقطعٌ»، قال ابنُ عساكر: «الوليدُ ابن سليمان لم يُدرك عمر»، لكن يشهد لها حديثُ عبد الرَّحمن بن أبي عميرة، وقد قوَّاه ابن كثير فقال (130/8): «وهذا منقطعٌ يُقوِّيه ما قبله»، يعني حديثَ عبد الرَّحمن بن أبي عَميرة، وحديثَ عُمَير بن سعد، وقد تقدَّم قريبًا أنَّ في هذا الأخير راويًا متروكًا فلا يصلُحُ أن يكونَ مُقوِّيًا لهُ، والله أعلم.

(27) هو عُمَيْر بن سعد كما في أوَّل الحديث، وقد رجَّح الحافظ ابن كثير في «البداية» (130/8) أن يكون القائل هو عمر بن الخطَّاب، فإنَّه هو الَّذي عزلَ عمير ابن سعد وولَّى معاوية، قال: «هكذا ذكره أصحابُ الأطراف في مسند عُمَير بن سعد الأنصاري، وعندي أنَّه ينبغي أن يكون من رواية عمر بن الخطَّاب، ويكون الصَّواب: فقال عمر: لا تذكروا معاوية إلاَّ بخير، ليكون عذرًا له في توليته له»، ثمَّ قال: «وممَّا يُقوِّي هذا أنَّ هشام بن عمَّار قال:...»، وسَاقَ رواية ابن عساكر عن عمر ابن الخطَّاب مرفوعًا به، وقد تقدَّمت في التَّعليق السَّابق.

(28) عند التِّرمذي: «**اللهم اهْدِ به**».

(29) برقم (2924)، ورواه في مواضع أخر، ورواه أيضًا مسلمٌ (1912).

(30) ليست موجودة في سياق هذه الرِّواية، وإنَّما جاء في رواية أخرى عند البخاري (2894 و2895): «**فقلتُ: يا رسول الله! ادْعُ الله أن يجعلني منهم. فقال: أنتِ منهم**».

(31) البخاريّ (2799 و2800).

(32) رُوِي بألفاظ متقاربة وبأسانيد مختلفة، منها: ما رواه الآجرِّي في «الشَّريعة» (2012)، وإسنادُهُ ضعيفٌ جدًّا؛ فإنَّه يرويه عن محمَّد بن الحسين بن شهريار، نقل الخطيب في «تاريخ بغداد» (232/2) عن ابن ناجيةَ أنَّه يكذب، والرَّاوي عنده عن ابن المبارك هو عبد الرَّحمن بن عبد الله بن عمر، وهو ابن حفص العمري، قال الذَّهبي في «المغني» (382/2): «تركوه واتَّهمه بعضهم»، وفي «التَّقريب»: «متروك».
ورواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (59/207 ـ 208) من طريقين:
الأولى: بلفظ: «تُرَابٌ في أنف معاوية أفضل من عمر بن عبد العزيز»، عن سعيد بن يعقوب الطَّالقاني، وفي إسنادها: مَنْ لم أجدْ له ترجمةً.
والثَّانية: بلفظ: «تُرَابٌ في مِنْخَرَيْ معاوية مع رسول الله ﷺ خيرٌ أو أفضلُ من عمر بن عبد العزيز»، عن محمَّد بن يحيى ابن سعيد، وفيها محمَّد بن محمَّد ابن سليمان، هو الباغندي الحافظ، قال في «اللِّسان» (360/5): «كان مدلِّسًا وفيه شيء»، وقال: «صدوقٌ من بحور الحديث»، وفي إسنادها أيضًا من لم أجد له ترجمةً، وهو: أحمد الدُّوري (وأخشى أن يكون مصحَّفًا)، وأحمد بن محمَّد البزَّار، لم أجد من ترجم له غير الرَّاوي عنه في هذه الطَّريق وهو أبو الشَّيخ (الحافظ)؛ عبد الله ابن محمَّد بن جعفر، وقد قال عنه في «طبقات المحدِّثين» لهُ إنَّهُ: «حسن الحديث كثير الفوائد».

(33) وردت العبارة في المخطوطة هكذا: «الَّتي دخل في عرائق فرس..»!، والتَّصويبُ من «الصَّواعق المحرقة على أهل الرَّفض والضَّلال والزَّندقة» (613/2 ـ الرِّسالة).

(34) لم أجدْهُ بهذا اللَّفظ مُسْنَدًا! وقد ذكرهُ بلفظ مقارب: ابنُ حجر الهيتمي في «الصَّواعق المحرقة على أهلَ الرَّفض والضَّلال والزَّندقة» (613/2 ـ الرِّسالة).

(35) كذا في المخطوطة، ولعلَّ صوابها: «ذكرهُ».

(36) هكذا وردت في المخطوطة! ولعلَّ المعنى: من ذكره بسوء ظلَمَ ومالَ عن الحقِّ؛ لأنَّهُ فَرَضَ فيه العصمةَ، وأنبِّهُ على أنَّ الله تعالى هو الَّذي يعصمُ وحدهُ، وقد عَصَمَ رسولهُ ﷺ، وليست العصمةُ إليهِ ﷺ.



كِـي كَان حَـي مَشْـتاق تَمْـرة وكـي مـات علقـولُ عَرْجُـون

كتاب المعاني

محمد بوسلامة

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله وبعد:

فإنِّي لمَّا فرغتُ من الكلام على مباني المثل السَّائر: «كي كان حي مشتاق تمرة وكي مات علقول عرجون»، تاقت النَّفس إلى قطف جنَاه، ومعرفة معنَاه، وطمح الخاطر إلى التَّنزُّه في رياضِه، والارتواء من حياضِه؛ إذ كان ذلك أعظم المقاصد، وكلُّ أديب له راصد، فإنَّ المباني هي بمثابة الخباء المرونق بأنواع الزَّخارف، المزيَّن برفيع الأستار والمطارف، وإنَّ المعاني هي بمثابة الخَريدة الحَسناء المخدَّرة في ذلك الخباء، فمهما تلذُّ الأعيُن ويسرحُ النَّظر في رُقُوم سترها، فمَا في جوف الخدر أعجَب وألذُّ وأسرُّ للنَّاظرين.

واعلَم أنَّ النَّفس لتأنَس لذكر الأمثال، وإنَّها لتَجد فيها ما تشتَّت من المعاني حاضرًا بين يَديها بأوجَز عبارة، وأدلِّ إشارة، فتقوى لديها الحجَّة وتتَّضح لها المحجَّة، وقد دأب النَّاسُ على حفظ ما تجود به ثغور الفصحاء من يواقيت الكلام وجواهر البيان، فتصير فيهم أمثالاً سائرة، وحكمًا على الألسنة دائرة.

واعلم أنَّ المثل لا يقيَّد بسببه، وإنَّما العبرة بعموم لفظه، فهو يعمُّ جميع الأحوال الَّتي يتحمَّلها لفظه، وربَّما يلتفت فيه إلى السَّبب إذا مَنَع مانع، كما في قول المثل: «وين دمك وين همَّك»، فإنَّ هذا لا يعمُّ جميع الأحوال والأشخاص، فهو عموم غير مرضي؛ لأنَّه يدعو إلى قطع الأرحام، والنَّأي عن القُربى، وإنَّما هو مقصور على حال مَن كان بين قوم لم يقدِّروا للرَّحم قَدرها، فهو بين قومه مهضوم الجناب، مُروَّع الفؤاد، ولا شكَّ أنَّ هذا أشدُّ على القلب من ظلم الأباعد، بل الشَّأن كما قال طَرَفة:

وظلم ذوي القربى أشدُّ مضاضةً
على المرء من وقع الحُسَام المهنَّد

فيقال: «وين همَّك وين دمَّك» لمن كان هذا شأنُه، لا أنَّه كلَّما وُجد الدَّم وجد الهمُّ؛ فإنَّ هذا يكذبه الشَّرع والواقع، ونظير هذا ما ذكره الفقهاء في حديث «**ليس من البرِّ الصِّيام في السَّفر**»؛ فإنَّه لا يصحُّ إجراء العُموم فيه على مقتضى ألفاظه، وإنَّما فيه التفاتٌ إلى سببه، فهو من العامِّ الَّذي لا يستقلُّ دون سببه، وذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ رأى رجلاً قد ظُلِّل عليه وكانوا في سفر، فسأل عنه فأخبروه أنَّه صائم، فقال: «**ليس من البرِّ الصِّيام في السَّفر**»، أي فيمَن كان هذا شأنه، وبلغ به الصَّوم ذلك المبلغ، لا أنَّه كلَّما وُجد الصَّوم في السَّفر نُفي البرُّ عن صاحبه، فإنَّ هذَا مردودٌ بما هو معلومٌ عند أهل العلم، وبهذَا تعلم كيف تنزَّل الأمثال على منازلها.

ومنَ الأمثال ما لا يُقبل بحال؛ فإنَّما هو من كلام اللُّصوص وأهل البطالة، كقولهم: «ربِّي يعطي اللَّحم للِّي ما عَنْدوش سْنَان»، فهذا كلام قد أتاه الباطل من بين يديه ومن خلفه، وهوى بصاحبه في مهاوي الشَّطَط، وهو مع ما فيه من الاعتراض على الحكمة الرَّبَّانيَّة يدلُّ على سَريرة قَبيحة، وقلب حَسود، ونفس قانطة من رحمات الله، وقَد طالت ذيول المقدِّمة، وهذَا أوان لذَّة الأنظار بمخدَّرات الأستَار، فأقول:

اعلم أنَّ المثل يُضرب للرَّجل يُضيِّعه قومُه فلا ينظرون إليه ولا يعرفون له قَدره، فإذا ماتَ أو قارب ذلك بهَرم أو مرض لا يُرجى، تشدَّقت الأفواه بالثَّناء عليه وذكر مناقبه، وأكثروا فيه من: كانَ وكان، وهؤلاء هُم أصحاب العراجين الَّذين عناهم المثل، وإنَّ هذه الذَّميمة كائنة في الأمم عربهم وعجمهم، غير أنَّها فاشية في بني قومي، فهم أعرفُ النَّاس لهذا المعنى، وفيهم

ضُرب المثل فقالوه وتناقلوه، وهو من أكثر الأمثال استعمالاً، وإنَّما يكثر استعمال الأمثال بكثرة مضاربها.

والمثل كما تَرى صيحةٌ في وجوه المتجاهلين لأقدار الرِّجال، وقَد صاح بهم صيحةً ردَّد الزَّمانُ صداها، وأدرك النَّاس مداها، وما حدَثَ أمر يظهر فيه أصحاب العَراجين إلاَّ أُلقي بالمثل على أكتافهم، فينقضُ ما صيَّروه غزلا، ويَقْلِبُ جِدَّهُم الَّذي زعموه هزْلاً، وقيل: هيهاتَ هيهاتَ ما تطلبون، وقد تشتَدُّ وطأة المثَل على القوم إذا كان صاحبهم مضيَّقَ الأرزاق، وكان أصحاب العراجين أولي كنوز وسَعة، فيكون كلامهم في الاعتراف بقَدره ومقَامه أشبه بالسُّخرية والهزء بأصحاب العُقول، وفي كلِّ حال لا يخلو أمرُهم من ألوان الاستهزاء، ولهذَا خرج المثل مخرج التَّهكُّم والسُّخرية، على طريقَة الهزل الَّذي يُراد به الجدُّ، وإنَّ كلَّ مَن يسمع المثل ويفهم معناه، يلوح له هزل القَوم المتظاهرين بالجدِّ، فحسُن أن يُقابل هؤلاء بمَثَل ساخر هازل، ينادي عليهم بغَرابة ما يفعلون، وأنَّ مثلهم في ذلك كمَثَل رجل عاش بائسًا محرومًا، لو أُلقيت له تمرةٌ لعدَّ ذلك من غنائم الزَّمان، وهُو بينَ قوم لا ينظرون إليه، فلمَّا مات وضعُوا عليه عرجون تمر، فيا للعَجب! ويا لضَيعة الرُّطَب!

ولقد قدَّرت في نفسي أنَّ صاحب المثل رأى رجلا جليلا جفاه قومُه وضيَّعوه، فصار إلى سُوء الحال، فلمَّا مات فزعوا لموته، وأظهروا تعظيمَه، وبالغُوا في ذلك، فقال حينئذ كلمتَه فأرسَلَها مثلا يضربه النَّاس لكلِّ مَن طلب له التَّعظيم والتَّكريم بعد فوات الأوان، فهو إذَن من قَبيل ضَرب الأمثال كما تقدَّم، والَّذي يُقوِّي عندي هذَا أنَّ النَّاس قد تواطؤوا على التَّمثُّل به حين يرونَ مثل هذَا؛ فكأنَّهم توارثوا المثل ومضربه الَّذي قيل فيه، ولا مانعَ من حمل المثل على الحَقيقة، وأنَّ القَوم أحضَروا عراجينَهم وفرَّقوا التَّمر صدقَة على ميِّتهم الَّذي كانَ مشتاقًا إلى تمرة يابسة في حياته البائسة، وهذه عادة أهل القُطر في الزَّمان القديم، فإنَّهم يُحضرون عراجين التَّمر إلى الجَبَّانة، فيضَعونها على الأرض أو يعلِّقونها على الأشجار، ليأكل منها النَّاس يرجُون بذلكَ حصولَ الثَّواب لميِّتهم، وهذه عادةٌ ما زال عليها أهلُ البَهجة المحميَّة بالله[1]، فلمَّا شهد الحَكيم الجنازةَ، وشَهد ما فعلوه، خَطَر على قلبه ما كان عليه صاحبُهم البائس في الدَّار الفَانية، فأرسَل كلمتَه مثلا، وهو على هذا المحمَل قد أخذ المعنى من شيء شاهَدَه، ثمَّ صبَّه في قوالب الفصَاحة والبلاغة، فكان هذا أصلُه، ثمَّ توسَّع النَّاس فاستَعملوه في كلِّ موضع يُنظَر فيه إلى الرَّجل بعد فوات الأوان، وقَد رمز بالتَّمرة إلى سوء الحال، وقلَّة ذات اليد، وأنَّه بلغَت به الحاجة مبلغًا صار فيه مفتقرًا إلى أقلِّ ما يقوم به حالُ الإنسان، وهذا غاية في الخصاصة.

ونكَّر التَّمرة للدِّلالة على التَّقليل والتَّحقير، أمَّا العرجون فقد نكَّره للدِّلالة على التَّعظيم؛ لأنَّه قُصد به شيء عظيم أُقيم له عند موته.

إذا علمتَ هذَا فاعلَم أنَّ من أغراض التَّنكير: التَّحقير والتَّعظيم، وإليه أشار العلاَّمة عبد الرَّحمان الأخضَري الجَزائري مع غيره من الأغراض، فقال:

ونكَّـروا إفـرادًا أو تكثـيـرًا
تنويعًا أو تعظـيمًا أو تحقيرًا

وهذه معانٍ تُذاق في الكلام، كما تُذاق اللَّذاذة في الطَّعام، واعلم أنَّه آثر التَّعبير بالتَّمرة؛ لأنَّ المقامَ يناسبُه ذِكر الأقوات، فإنَّ أصحابَ الخَصاصة نفوسُهم أعلق بالأقوات منها بالفواكه، ولذلك فإنَّك إذا جُعت لا تفكِّر في الفَواكه حتَّى تشبع، والتَّمر هو من جملة الأقوات المنصوص عليها في الزَّكاة، وقَد ألحَق بها علماؤنا المالكيَّة ما يماثلها في الاقتيات والادِّخار، فبلغوا بها عشرين نوعًا فلَم يجمدوا على الألفاظ، تاركين للمَعنى المقصود من التَّشريع، وهو سدُّ الخَلَّة وكذلكَ فافعل بالتَّمرة في المثل، فألحقْ بها ما في معناها مِن كلِّ ما يحتاج إليه الإنسانُ، ولا تجمد على لفظ المثل، فإنَّه يرمي في مكان بعيد ولما فيها من المعاني، كان التَّعبير بها أولى من التَّعبير بشيء من الفَواكه، وانظر كيفَ حسن ذكر التُّفَّاح في الحكمة الجزائريَّة «الحَجْرة من عند الحبيب تفَّاحة»؛ لأنَّ المقامَ مقامُ مُكارمة وتوادٍّ وتَهاد، فذكر التُّفَّاح هُنا غايةٌ في التَّناسب، ولو قال: «الحَجْرة من عند الحبيب تمرة» أو قال الآخر: «كي كان حي مشتاق تفَّاحة» لسَمج الكلام، ولمجَّتْه الأذواق لشدَّة التَّنافر؛ فإنَّ لكلِّ مقام مقَالا.

فإذا لاح لك هذَا فاعلم أنَّ التَّمرة في المثل ليسَت محصورةً في معناها المعروف، فالقَصد منها الدِّلالة على أقلِّ ما يحتاج إليه الإنسانُ من أمور حسِّيَّة أو معنويَّة، فمعنَاها في التَّركيب أعمُّ منها في الانفراد، وهذا أسلوبٌ عربيٌّ له مَدخل في علم أُصُول الفقه، يُطلب في مباحث مفهوم الموافقة، ونظيره الأكل المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا﴾ الآية [النِّسَاء: 10]؛ فإنَّ المقصود منه في التَّركيب القُرآني أعمُّ منه في حالة إفرادِه، وما قيل في التَّمرة يُقال في العرجون، فالقَصد به

(1) وهي عادة لم يكن عليها سلف الأمَّة.

كلُّ ما يُجاء به لأجل الإكرام مِن معنًى أو حسٍّ؛ فإن كانَ المقام في الحسِّيَّات حُمل معناهما على الأمور الحسِّيَّة، وإن كان في المعنويَّات حمل على الأمور المعنويَّة، فالمثل ذُو وجهين إلاَّ أنَّه كثر استعمالُه عندنَا في الأمور المعنويَّة، فيُقال فيمَن تعامَى النَّاس عن فضله، ولم ينزلوه منزلَته الَّتي يستَحقُّها.

وفي المثل إشارة إلى أنَّ الميِّت كان جليلا مستحقًّا للتَّقدير والتَّكريم في حياته، وذلكَ يُفهم من قوله: «علقولُ عَرجون»؛ إذ كلُّ مَن يسمَعُ المثل يقَع في نفسه أنَّ الميِّت كان يستَحقُّ ذلك في حياته لولا جفاء القَوم، وما جاؤوا بالعَراجين وتدافعوا على جنازته إلاَّ لسَابق معرفتهم بفَضل صاحبهم.

واعلَم أنَّ تقديمَ أهل الصَّدارة ممَّا ركز في طبائع النَّاس، فإن حادوا عن هَذه النَّحيزَة المتأصِّلة فلأمر عظيم قويَ على استئصالها من النُّفوس؛ فإنَّ السَّجيَّة إذا حصلت بالتَّحصيل يصعبُ قلعُها، فكيف بالمجبول عليهَا، وفي المثل الشَّعبي «مُول الطبَعْ ما ينطبَعْ»[2]، وهذَا يُقال في كلِّ الجبِلاَّت الَّتي حاد النَّاس عنها، فلا بدَّ أن يكون ثمَّة أمر عظيم اجتثَّها من مغَارزها؛ كالمرأة الَّتي خُلع منها الحياء الَّذي صبغت بصباغه وهي في بطن أمِّها، فإنَّ نَزع يدها أو أيِّ عضو منها لهو أيسَر من نزع حيائها، ولكن التَّخدير الَّذي يسبقُ الخلع يُميت فيها الإحساس بالألم، وإنِّي أرى أنَّ كلَّ خصلة من خصال الخَير الَّتي تقتَلع من مَغارزها لابدَّ أن تتقدَّمَها مرحلة التَّخدير المميت للإحساس، ثمَّ يتلوها الاقتلاع، فالشَّأن في ذلك كالشَّأن في قطع الأعضاء الحسِّيَّة فتأمله تجده صحيحًا.

واعلم أنَّ مرحلة التَّخدير هي مجال العراك فمَن عَمي عنها منَ المُصلحين، فهو يعتركُ خارجَ المعركة، وهذا مَهيعٌ ينبغي لمراسيل المصلحين أن تُعنق في مسالكه عنقًا فسيحًا، فإنَّها مطالب تدركُ بها الأدواء وأسبابها، والأدوية وأبوابها، ولقَد نظرتُ في أسباب تأخير أهل الصَّدارة فتفرَّق الخاطر في شعابها، وتراءت لي الأسباب كمَا تتراءى الغيلان في مزاعم الأعراب، فمرَّة أقول: الحَسَد، وأخرى: التَّنافس على الفَانية، وتارة أقول: العصبيَّة القوميَّة، وأرجعُ فأقول: بل هُو الجهل بأقدار الرِّجال، ويأخذني غير هذَا ممَّا قُرب وبُعد، ولو خلص واحدٌ منها إلى أمَّة لكفَى في إيجاد هذه الآفَة، فكيفَ لو تمالأت عليها هذه الموبقَات الَّتي تُبيد الأمَم، وتهدم الدُّول، ولقَد حذَّر النَّبيُّ ﷺ أمَّتَه هذه

الآفات الَّتي تلد آفات، فقال في الحسد: «**لا تحاسَدُوا**»، وقال في التَّنافس على الفانية: «**لا تَنَافَسُوا**»، وقال في العصَبيَّة المقيتَة: «**المسلمُ أخُو المسْلم**»، وقَال في هضْم الحُقوق والظُّلم بأنواعه، ومنه تَجاهُل الأقدار: «**لا يَظْلمُه ولا يَحْقرُه**»، وقال: «**بحَسْب امْرئ منَ الشَّرِّ أنْ يحْقرَ أخَاهُ المُسْلم**»، وهذه المقاماتُ التَّربويَّة إن لم تُربَّ عليها الأجيالُ أصابَ الفسَادُ الدِّينَ والدَّولةَ.

واعلم أنَّ النَّبيَّ ﷺ أمَر أن نَرعى للنَّاس مراتبَهُم، قالت أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «أمَرنا رسُولُ الله ﷺ أن نُنزلَ النَّاسَ منازلَهُم»، وهل يمكنُ لأمَّة أن تنزِّلَ النَّاسَ منازلَهم إذا فقدت المعيار الصَّحيح الَّذي تتبيَّن به المنازل، إنَّ الأمَّة الَّتي ليسَ لها من القسطاس المستَقيم ما تَزن به الرِّجال أمَّة منحطَّةٌ، وسيسُودها لا محالةَ مَن لا يستَحقُّ السِّيادةَ، وستُلقي إلى أراذلها بالقياد، وإنَّ هذَا يؤذنُ بخَراب الدُّول، بل يُؤذن بخَراب الأرض المعمُورة كلِّها، وفي الحديث: «**إذَا أُسندَ الأمْرُ إلى غَيْر أهْله فَانتَظر السَّاعَة**»، وانظُر كيفَ سكتَ عن مقابل ذلك فلَم يقُل: «إذا أُسند الأمرُ إلى غَير أهله، ولَم يُسنَد إلى أهله»، اكتفَاءً بأحد المتَلازمين، ولست أشكُّ في هذَا التَّلازم فهو عندي من اليَقينيَّات، فإنَّ الشَّأن كمَا قال الشَّاعر:

وكَم قائل مَالي رأيتُك راجلا
فقُلتُ له من أجل أنَّك فَارس

فلمَّا ركب الفَرس مَن لا يحسنُ الكَرَّ، وتزيَّ بزيِّ الكُماة مَن يحسنُ الفَرَّ، ترجَّل الفُرسانُ، ووضَعُوا الدُّروع والمغافر، وتأخَّروا يرقبونَ مصارعَ الأقوام، لا يملكونَ لهم شيئًا، فانظُر ماذَا يجري على الأمَم حين تفقد ميزانَ الرِّجال، وما زالَ المصلحونَ يحذِّرون شرَّ هذه الآفة الَّتي تلدُ آفات، قال العلاَّمة البَشير الإبراهيمي: «إنَّ أشقَى الأمَم من جَبُن عُلماؤُها، وبَخِل أغنيَاؤُهَا، وأشقَى منها أمَّةٌ لا تعرفُ موازينَ الرِّجال».

فما أصدقَ كلمةَ البَشير غيرَ أنَّه هاهنا نذيرٌ يُنذر الشَّقاء والانحطاط، وما ذلكَ إلاَّ لفَساد الميزان.

وإنَّ إصلاحَ ميزان الرِّجال له أصل في السُّنَّة، فقَد سألَ النَّبيُّ ﷺ نفرًا من أصحابه عن الرَّجُل الشَّديد، فقالوا: هو الَّذي لا يصرعَه الرِّجال، فقال: «**ليسَ بذاكَ، ولكنَّهُ الَّذي يمْلكُ نفْسَهُ عنْدَ الغَضَب**»، فكانَ في جوابه ميزان صحيح لمعرفة الأشدَّاء، ولو وَزَن النَّاس الشِّدَّةَ بما ذُكر في الحديث لصار كثيرٌ من الأشدَّاء -فيما يبدو للنَّاس- ضُعفاءَ مغلوبين، وهذَا اعتناء من سيِّد المُصلحين ﷺ بضَبط موازين العُقول؛ لأنَّ الخَلل فيها يلد

(2) أي أنَّ صاحب الطَّبع لا يمكنه أن ينطبع بغير طبعه وإن حاول مخالفته، وما أحسن قول المتنبِّي:
وكلٌّ يرى طرق الشَّجاعة والنَّدى
ولكن طبع المرء للمرء قــائد

خلالاً، ولقد اهتدى أطبَّاء العَصر إلى أنَّ الإنسانَ تذهبُ قوَّتُه بقَدر غضَبه، وإن بدَا في أعين النَّاس شديدًا، وإنَّه لقويٌّ مادام مالكًا لنفسه، وهذَا ممَّا يدرسُ في الرِّياضَات لا سيما الرِّياضَات القتاليَّة، فصلَّى الله وسلَّمَ على مَن لا ينطق عن الهوى، ولو لم يكن للنَّاس ما يميِّزون به خالص الذَّهب لتَهافتوا على كلِّ أصفَر برَّاق، وقُل هذَا في الدِّين والدُّنيا.

وهذَا استطراد أخذنا إليه البَحث عن أسباب تغافُل أصحاب العَراجين عن ميِّتهم المشتَاق، وقَد هَرَع هؤلاء إلى تغطية تلكَ الدَّميمة بعرجُون عظيم، وقَد تقدَّم أنَّه يرمَز بالعرجون إلى كلِّ ما يُكرَمُ به الإنسانُ من الحسِّيَّات أو المعنويات، ولكنَّ صاحب المثَل قَد فضَحَهُم ونادى على فعلتهم بعَدم الجَدوى، وأشار في هذَا المقَام إلى هذَا المعنَى بإشَارة لطيفَة، وذلكَ في قوله: «عَلّقُولُ» فإنَّه عَدَل عن التَّعبير بقوله: «عْطَاوْلُ»؛ لأنَّ الإعطاءَ يفيد التَّمليك، والتَّمليك فات زمنه، وانصرمَ أوانُه، فإنَّ الميِّت لا يملكُ، ولم يقُل «وضَعُوا في يده»؛ لأنَّ اليد الَّتي يأخُذ بها قَد يَبست وماتت، فلم يبق إلاَّ تعليقُه في عنقه، وهذَا هُو التَّكريم العرجوني، فَلا يحسُن إذن إلاَّ التَّعبير بالتَّعليق، فكأنَّه يقُول لهُم ما يَصنَع هذَا بعرجونكم؟ فهو والجمادات سواء، فوضعُ العرجون عليه بمَثابة وضعه على صَخْرة أو تعليقه على شجرة، ونظير هَذا في استعمال لفظ التَّعليق لفَوات الأوَان وعدَم الجَدوى قَول المثل السَّائر: «كي شابَ علقُول كتاب»[3]، فانظُر كيفَ عبَّر بالتَّعليق للكتَاب بعد فوات الأوان؛ لأنَّ صاحبَه لا ينتَفع به، فالغَرض بالتَّعليق هُنا هو نفسه في المثل المشروح، وهذَا من توارُد أذواق البُلغاء، فَلاحَ لكَ بهذَا أنَّ الحَكيم عبَّر عَن معانٍ كثيرة بكلمَة وجيزَة، يتحيَّر فيها أهلُ البلاغَة، وفي التَّنزيل الحَكيم من هذَا النَّوع ما يعجز البُلَغاء، وقَد صوَّر حال الميِّت في حياته بأسلوب بليغ ينتَقل به الذِّهن منَ المعنَى إلى لازمه، وذلكَ كما لَو قيلَ لكَ: هل فلان صديقُك؟ فقلتَ: لا أعرفُ اسمَه، فينتقل الذِّهن من ملزوم، وهُو عدم معرفَة اسمه إلى لازم وهو عدم الصَّداقَة، فعبارتُك أفادَت المعنَى المقصُود، وهُو نفيُ الصَّداقَة، وأفادت تصوير حالة التَّباعُد، وأنَّها إلى غاية الجَهل باسمه، فإذا تبيَّن لك هذا، فاعلم أنَّ هذا الأسلوب يسمِّيه البيانيُّون الكنايةَ، وهي استعمالُ اللَّفظ في لازم معنَاه،

(3) المعنى أنَّه لمَّا جاوز سنَّ التَّعلُّم وصار كبيرًا ذهبوا به إلى الكتَّاب ليتعلَّم، ومثله لا ينتفع في العادة، ويؤيِّد هذا المعنى أنَّ المثل في رواية شعبيَّة صحيحة بصيغة: «كي شاب ادَّاوه للكتَّاب»، وهي الرِّواية الَّتي اقتصر عليها الأستاذ رابح خدوسي في كتاب «الأمثال الجزائريَّة»، ولا مانع من أن يكون للأمثال معان مختلفة باختلاف الأقطار والأعراف.

قال العلاَّمة عبد الرَّحمان الأخضري الجَزائري:

لـفـظٌ بـه لازمٌ مـعـنَـاه قُـصِـدْ
مـع جـواز قـصـده مـعْـه يُـرد

فإن قلتَ: كيفَ يؤخذ هذا المعنى من المثل على طريقة الكناية؟

فجوابه: أنَّه أراد إثبات الحاجَة والافتقار، ولكنَّه عبَّر بالاشتياق إلى التَّمرة، وهُو لا يدلُّ على المعنَى المقصُود بمادَّته اللَّفظيَّة، وإنَّما ذلك يحصُل بانتقَال الذِّهن من الملزوم الَّذي هو اشتياق تمرة إلى لازمه، وهو الفَقر.

فإن قلت: لمَ عَدل عن التَّصريح إلى الكناية؟

فجوابه: أنَّ ذلك لنكتة بلاغية، وهي إحضار الصُّورة في ذهن السَّامع، وتَصوير الحَال بشدَّة التَّباعد عن الغنى، فأفادت عبارتُه المقصود، وصوَّرت الحالة، وأنَّه بلغَ إلى حالة الاشتياق إلى تَمرة، ولو صرَّح لفاتت هذه المعاني البَليغة، وللكناية مباحث وذيول وأمثلة كثيرة، وكلُّ ذلك مبسوط في علم البيان، فحُقَّ لهذه الدُّرر أن تنظَم بسُمُوط الأشعار، وأن يتغنَّى بها كلُّ من ضَيَّعه قومُه، وإنِّي لمَّا طافَ بي طائف الخيال دخلت سوق الشُّعراء، فكان أوَّل مَن لاقيت ذلكَ الفتى العَربي الَّذي ضيَّعه قومُه، رافعًا عقيرتَه يشكو عشيرتَه، يقول:

أضاعوني وأيُّ فتًى أضاعُـوا
لـيوم كـريـهـة وسـداد ثغر

فألقيتُ باليواقيت بينَ سَحْره ونَحْره، ثمَّ نظمتُها له بسَمْط رويِّه وبحره، وقلتُ مصدِّرًا ببيته:

أضـاعــونـي وأيُّ فـتـى أضـاعوا
لـيـوم كـريــهـة وسِـداد ثـغــر
وإنِّـي كـنـتُ بـيــنَ الـقَـوم حيـا
فـمَـا عـرفُوا ولا اعتَرفوا بقَدري
أسـاور مـحـنـتي والدَّهـر تجـري
بـه الأيَّــام فـــي حــلـــو ومـــر
إذا اكتَحلت عيـونُ النَّـاس نومـا
يبيت الفكر في الظَّلمـاء يسـري
وما فكري سَـرَى فـي حبِّ سلـمى
وإن تَعجَب فذا عـجـبٌ لأمـــري
ولـكـن تـمـرةٌ شـغَـفـت فُـؤادي
وقـد قضَّـيتُ في الأشواق عمـري
وإنِّـي إذا سـكـنـتُ الـيـومَ قـبـرًا
تبـاكى الـقـومُ فاعـجَب حولَ قَبري

وجـاؤوا بالـعَـراجـيـن الـغَـوالـي
أيأكُـلُ مـيِّـتٌ عـرجـونَ تـمـر

ثمَّ اجتمع علينا أصحابُ الأراجيز، فتباروا في نظمها على طريقة التَّعجيز، فلمَّا استبقوا في مجالهم وهدرت شقاشقُ ارتجالهم، جرَّدتُ لهم صَمصَامة تَفري كلَّ مباري، وامتطيتُ فرسًا لا يشقُّ عليه غُباري، ثمَّ أنشأتُ أقول:

يا عجَـبا لـرجُل مشتَـاق
لتَمـرة مضـيَّـق الأرزاق
قد اكتوى بلهب الأشـواق
ومَـدَّ شـوقـه لظى الإملاق
يغـازلُ التَّمرةَ في الأسواق
متَى متَى يا تمرة التَّلاق؟
جُودي على المشغُوف بالعِناق
واسقي فُؤادي طيِّبَ المذَاق
حتَّى أتاه الدَّهـر بالـفـراق
والتَفت السَّاق له بالسَّـاق
جدَّ إليه القَوم في سبـاق
وأنزلوه عَاليَ المـراقـي
وأبرق الكلام في الأشداق
وعصروا الدَّمع من الأحداق
واحتَملوا العرجون للتَّعلاق
وجـاء كـلُّ مُطعِم وسـاق
فصاح فيهم واعظ الأخلاق
والوعظ للقَلب السَّقيم راق
هـذَا كريم طيِّب الأعـراق
كان جديرا بالمقَام الرَّاقي
هـلاَّ أتيتُم قبـل بالأعـذَاق
إذ كـان للتَّمرة في اشتياق
لم يكُ سعيُكم بذَا الإعناق
ومدُّكم لهـذه الأعنـاق
ونفخُكم في هـذه الأبواق
إلاَّ لتَحظوا بثنـاء راق
وعلم ما في القَلب للخلاَّق
أعاذنا اللهُ من النِّفـاق
كلُّ الورى للموت في مساق
ووجـه ربِّنا العَظيم بـاق

ثمَّ تعالت الأغاني واللُّحون، فأقبلَ علينا شُعراء الملحون، فرشقوني بسهام العتاب، واشتَرطوا عليَّ شروطَ المتاب، وقالوا كيف تَنظمُها بالفَصيح، ولسانُ الدَّارجة بها يصيح؟ وإنَّك ابنُ جلدتنا، فانظمها على شَعر بلدتنا، فأسعَفْتُهم عَجِلا، وأنشدتُهم مرتَجلا:

تـصيـبْ خـيـار الـنَّـاس
في حيـاتُـو مـشـتـاق
علـى الـتَّـمـرة حـوَّاس
فـي هـواهـا عـشَّـاق
ضـايَـعْ بـيـن الـنَّـاس
مـا فـيـهـم عـتَّـاق
يـشُـوفُـو فـيـه نْحَـاس
وهـو ذهـب بـرَّاق
وحـيـن سـقَـاه الكَـاس
بمـرار الـفـراق
دارُولـو لَـغْـراس
بطـبـول ولـبـواق



وكـسَـاوَهُ بـلـبـاس

وعـرجـون الـتَّـعـلاق

هـاك حـديـث قـيـاس

وقـلـيـل الـلِّـي فـاق

وهذا رجْعٌ إلى الحقيقة، ومشيٌ على أقوَم طريقة، لئلاَّ يأخذَنا ما أَخَذ أبا العلاء المعرِّي في «رسالة الغفران»، وإنَّ هذا الحديث ليهدي إلى الحديث عن تلك العُصبة الَّتي حفظَ الله بهم الملَّة في هذه الأوطان، فقَد صَدَق المثل على كثيرٍ منهم، بل إنَّ أكثرَهُم لم يعلَّق عليه العرجون بعد موته، فهو أسوأُ حالاً من الميِّت المذكور في المثل، وإنَّ أسرعَ هؤلاء حضُورًا إلى ذهني حينَ أقرعُ هذا الباب، هُم مَن أدركتُ من مشيخة مدينة الجزائر المحروسة، وقد شدُّوا إلى الدَّار الباقية الرِّحال، وكلُّ امرئٍ منهم يقول بلسان الحال:

لو أنصفَ الجافون كنت مسوَّدًا

فيهم بمنزلة الكَبير الأعظم

فأنا الَّذي يشفي الجَهول بعلمه

ويطبُّ من علل الفُؤاد ببَلسَم

وأنا الرَّبيع إذا حللتُ بقفرهم

والبدر إن كُفروا بليل مظلم

فلو أنصفَ أهلُ الزَّمان لأحلُّوهُم من الأمَّة محلَّ الرَّأس من الجَسد.

ولمَّا وصَل بنا الكلامُ إلى الإنصاف ذكرتُ ما قاله الإمام تقيُّ الدِّين ابنُ دقيق العيد لفتية من أبناء الجزائر لقوه بالمشرق، وذلك أنَّه سألَهم عن أخبار العلاَّمة الأديب ابن خميس التِّلمسَاني، وأثنى عليه بعُلوِّ الرُّتبة في العلم والأدب، فقَالوا له: إنَّه عندنا ليس كمَا تصفُ، فقال: إنَّكم لم تُنصفوه، وقَد وقع مثلُ هذا من عُلماء المشرق المعاصرين في شأن بعض علمائنا المنسيِّين في هذا الزَّمان، فما أشبهَ اللَّيلة بالبارحة، والغَادية بالرَّائحة، ولعلِّي قد أنصفتُ ابنَ خَميس رحمه الله بعض الإنصاف لما ذكرتُه في «الأرجوزة الزِّيَّانيَّة» عند ذكر أمير المسلمين السُّلطان المعظَّم يغْمُراسَن رحمه الله فقلتُ:

ومن مَراقيه الَّتي بها ارتقى

جلوسُه مع ذي صلاح وتُقى

واستكتب الحبرَ البليغَ ابنَ خميس

بقَصره نعم السَّمير والأنيس

شاعرُ عصره نسيجُ وحده

مَن قَد علا بعلمه وزُهده

أثنى عليه صاحبُ «الإحاطه»

كلَّ الثَّنا واغتيل في غرناطه

واعلَم أيُّها اللَّبيب، أنَّ المثلَ صالحٌ لأَنْ يُضرب في كلِّ مجال؛ إذ قَد كثرت مضاربُه في الرِّجال، ولأَنْ يتمثَّل به أهلُ كلِّ ميدان، وهُو ينادي على الأمَّة بتضييع رجالها، وهذَا يُؤذِنُ بانحطاط الحَضارة والانقطاع دونَ النَّجائب في المهامه والأقفار، وتلك هي الجناية على الأجيال، واعلم أنَّ ما قيل في الرِّجال يُقال في النِّساء، غير أنَّك إذا استعملت المثل في شأن امرأة فلا تغيِّر لفظَه؛ لأنَّ القاعدة في الأمثال أنَّ ألفاظها تُحكى من غير تَبديل، وكذلكَ لو قيل أوَّل مرَّة في امرأة، فإنَّه يقال في الرَّجل بصيغَة التَّأنيث، كما في قولهم: «الصَّيفَ ضَيَّعتِ اللَّبن»، وتأويله هذا موضع يقال فيه: «الصَّيف ضيَّعت اللَّبن»، ويقال فيه: «كي كان حي...» المثل، واجْرِ على هذا التَّأويل في الأمثال كلِّها.

هذا ما صادَه الخاطر، وقيَّدته لك المساطر، من شرح المثل السائر «كي كان حي مشتاق تمرة وكي مات علقول عرجون»، وقد أوثقتُ لك القنيص في كتابين: أحدُهما للمباني، والآخَر للمعاني، فإذا ضممتَ الأوَّل للثَّاني اجتَمع لكَ منهما كتابٌ مشتَمل على ضُروب من العلم والحكمَة والأدَب، وقد سلكتُ بكَ الأنجادَ والوهادَ، وبعضُ السَّير كان على سَبيل الاجتهاد إذ المسالكُ فيها الصَّعب والذَّلول، والهضاب والسُّهول، فما كانَ من خطأ في المرقُوم فهَبْه لصَوابه، وما كانَ من زُعاق فهَبْه لعذابه، وقد أشرتُ إلى مواضيع حقُّها أن تفرد بالتَّأليف، ولُبُّ اللَّبيب للإشارات قرينٌ أليفٌ، والحمد لله.

□□□

تأديب النواشز بالضرب

أمينة حداد

إنَّ تعامل النَّاس في علاقاتهم يتباين ويختلف صلابةً ومرونةً، رزانةً ورعونةً، تعقيدًا وسهولة باختلاف معادنهم وأخلاقهم وأوساطهم وأعرافهم.

ومن هذه العلاقات: الزَّوجيَّةُ الَّتي تجمع بين الرَّجل والمرأة، وهي عروة وثقى لا تكاد تنفصم إذا كانت معقودة بأدب النَّفس والفقه في معاني الحياة، محروسة بالرَّشاد والحكمة، فإن ارتفعا عنها عصفت بها ريح الخلاف العاتية الَّتي لا يسكنها إلاَّ العَوْد إلى الشَّرع وتعاليمه.

والمستحبُّ في مثل هذا الصَّبر على كثير من المكروه لحفظ هذا الميثاق، فليس ثمَّة وسيلة للصلح بين المتنازعين إلاَّ وجدتها مشروعة عند نشوب الخلاف بين الزَّوجين، كالنَّصيحة والهجر والتَّحكيم والتَّنازل عن بعض الحقوق.

ومن هذا القبيل الضَّرب إذا كان محقّقًا للغرض، إلاَّ أنَّه قد يسرف فيه الجاني صاحب الجهالة فيجعل إصلاح زوجته بالضَّرب سببًا لتوسيع هوة الشِّقاق وتعجيل الفراق بحصول الطَّلاق، فيكون قد ارتكب ما هو أسوأ من نشوز زوجته، ولربَّما جاء آخر ليدفع في نحر هذا المتعسِّف منكرًا عليه «بأنَّ شرَّ الرِّعاء الحُطَمَة»[1] وبأنَّ الزَّوجة ليست أَمَة أو بهمة، وإنَّه لكلامٌ حقٌّ لولا أنَّ صاحبه قصد به فلسفة محدثة.

وبينهما ثالث صاحب رويَّة واهتداء، وبصيرة واقتداء، يقيم بين هذين الخصمين ميزان عدل وإنصاف، بلا تطفيف ولا انحراف، باسطًا لهذه المسألة حججها وبراهينها وضوابطها وقيودها، وهي مسألة:

تأديب النَّواشز بالضَّرب بين المنصفين والمتفلسفين والمتعسِّفين.

(1) هذا لفظ حديث نبوي [«صحيح مسلم» (1830)].
والرِّعاء جمع راع، والحطمة العنيف برعي الإبل.

◘ دليل مشروعيَّته من القُرآن:

جاء في القرآن ذكر تأديب النِّساء بالضَّرب، وذلك في حقِّ مَن نشَزت على زوجها، قال الله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ۝٣٤﴾ [سورة النساء].

والنُّشوز: العصيان، مأخوذ من النَّشز، لما ارتفع من الأرض.

والمرأة النَّاشز هي المرأة العاصية لزوجها المترفِّعة عمَّا أوجبَ الله تعالى من طاعته، وقد ذكر له الفقهاء صورًا منها: خروج المرأة من المنزل بغير إذن زوجها، أو منعها إيَّاه الوطء أو الاستمتاع، وجعل بعضُهم من ذلك: الزِّينة المشروعة، إذا كان يطلبُها وكانت قادرةً عليها، والظَّاهر أنَّه أعم، فيشمل كلَّ عصيان سببه التَّرفُّع والإباء[2].

وليس من النُّشوز منعُها الزَّوجَ من الاستمتاع تدلُّلا، أو لكونها تتأذَّى بذلك لعارض أو علَّة، وكذا خروجها من المنزل إلى القاضي لطلب الحقِّ منه، أو الاستفتاء إن لمْ يكن زوجُها فقيهًا، ولم يستَفت لها، أو اكتساب النَّفقة إذا أعسر بها الزَّوج، وكانت مهنتُها جائزةً، أو لشراء ما لابدَّ منه، ونحو ذلك[3].

(2) «تفسير المنار» (86/5).
(3) «الموسوعة الفقهية» (280/40).

وليس المقصود بالنُّشوز مطلقَ المغاضَبة والتَّعاصي؛ لأنَّ ذلك قلَّما تخلو منه حالُ الزَّوجين، ثمَّ يزولان وترجع الأمور إلى حالها الأوَّل[4].

قال ابن ناصر السَّعدي رحمه الله: «ومَن عصَت زوجَها ونشَزت، وتركَت طاعتَه الواجبَة بلا تقصير منه سقَط حقُّها من القَسْم[5] والنَّفَقة، حتَّى ترجعَ إلى طاعته، ويقوِّمُها بالوعظ والتَّذكير لها بمَا يجبُ من حقِّه، فإن أصرَّت هجَرَها، ثمَّ إن تمرَّدَت فلَهُ أن يضربَها ضربًا غير مبرِّح»[6].

وقوله رحمه الله: «تركت طاعته الواجبة بلا تقصير منه» قيدٌ معتَبر، فإنَّه متى كانَ التَّقصير من قِبَل الزَّوج ونشَزَت المرأةُ بسبب ذلكَ، لم يكُن له أن يبسُطَ يدَه عليها بالضَّرب.

قال صاحبُ «منار السَّبيل»: «ويُمنَع من ذلكَ ـ أي ضربُها ـ إذا كانَ مانعًا لحقِّها حتَّى يوفِّيَه؛ لأنَّه يكونُ ظالمًا بطلَبه حقَّه مع منعه حقَّها»[7].

ويحرُم من باب أوْلَى ضربُها بغَير سبب[8]، فمِن الرِّجال مَن إذا دخَل بيتَه، وقَد تكدَّر خاطرُه بسبب خصومَة أو شِجار، أو غيرها من الأسباب والأعذار، همَّ بإسكان لوعته، وإطفاءِ جمرته، بالسَّطو على زوجته، فينتَهز منها زلَّةً أو هفوةً ليُطفئَ جمرتَه بالسَّطو عليها، ولم يصدُر منها في الحقيقَة سببٌ تستَحقُّ به ذلك.

والضَّرب كالكيِّ، فهو آخر العلاج كمَا ورد في الآية، فإذا وقَع النُّشوز فإنَّما يُعالج أوَّلًا بالوعظ، ولا يُعاجَلُ بالضَّرب، وإن كانَ ظاهر الآية يدلُّ على الجَمع بين العِظَة والهَجر والضَّرب، إلاَّ أنَّ فحوى الآية يدلُّ على التَّرتيب.

فإذا وقع النُّشوز وتحقَّق، وخيفَ من سُوء عاقبته ومغبَّته، كانت محاولةُ التَّقويم بالوعظ، فإذا أظهَرَت المرأةُ مع ذلك لَجَاجةً فالهَجر، فإن أقامَت بذلك على ذلك فالضَّرب.

ولا يجوز لأحد أن يضربَ أو يهجُر مضجعًا بغَير بيان نشوزها، والمرأة لا تكونُ عاصيةً لزوجها إلاَّ وقَد تقدَّم منه لها أمرٌ أو عِظةٌ بالمعروف[9].

فالبيانُ والوعظُ إذَنْ واجبان، لا يحلُّ الانتقال إلى غيرهما، إلاَّ إذا بدَا عدمُ انتفاع المرأة بهما، وذلكَ خلاف لما يفعلُه كثيرٌ من الرِّجال، يهونُ عليهم معالجَةُ النُّشوز بالضَّرب من أوَّل ظهوره، يتوهَّمُون أنَّه حقٌّ مطلَقٌ عن القُيود، وليس الأمر كذلكَ كمَا سيأتي بيانُه.

قال ابنُ عطيَّة: «العظة والهَجر والضَّرب مراتب، إن وقَعت الطَّاعة عند إحدَاها لم يتعَدَّ إلى سائرها»[10].

والوعظ يختلفُ باختلاف حال المرأة، فمنهُنَّ مَن يُؤثِّر فيها التَّخويف مِنَ الله، ومنهُنَّ مَن يُؤثِّر في نفسها التَّهديد والتَّحذير من سُوء العاقبة في الدُّنيا، كشمَاتة الأعداء والحرمان من النَّفَقة.

والرَّجُل العَاقل لا يخفى عليه الَّذي يؤثِّر في قَلب امرأته، قال السَّعدي: «فإن لم يُفد التَّذكير فاهجروهنَّ في المضاجع، بأن لا ينَامَ عندها، ولا يباشرُها بجماع ولا غيره، لعلَّ الهَجر ينجَعُ فيها، ذلكَ بمقدَار ما يحصُلُ به المقصودُ فقط، فإنَّ القصدَ بالهجر نفْعُ المهجور وأدبه، ليسَ الغَرض منه شفاء النَّفس كما يفعلُه مَن لا رَأيَ له إذا خالفَتْه زوجتُه ولم يحصِّل مقصودَه هَجَر هجرًا مستَمرًّا، أي بقيَ متأثِّرًا بذلك عاتبًا عليها، ووصلَت به الحالُ إلى الحقد الَّذي هو من الخِصال الذَّميمة، فهذا ليسَ منَ الهجر الجَميل النَّافع، وإنَّما هو منَ الحقد الضَّارِّ بصَاحبه الَّذي لا يحصُلُ به تقويم ولا مصلَحَةٌ، فإنْ نَفَع الهجرُ للزَّوجَة، وإلاَّ انتقَل إلى ضربها ضربًا خفيفًا غير مبرِّح، فإن حصَل المقصودُ ورجعَت إلى الطَّاعة وتركَت المعصية، عاد الزَّوج إلى عِشرتها الجَميلة، ولا سَبيل له إلى غير ذلك مِن أذيَّتها؛ لأنَّها رجعَت إلى الحقِّ.

وهذا الدَّواء لكلِّ عاص ومُجرم، إذا تركَ إجرامَه عاد حقُّه الخاصُّ والعامُّ، كما في حقِّ التَّائب مِنَ الظُّلم وقَطع الطَّريق وغيرها، فكيفَ الزَّوج مَع زوجته؟.

وفي هذه الآية فائدةٌ نافعةٌ[11]، وهي أنَّه ينبغي لمن عادَ إلى الحقِّ أن لا يُذَكِّر الأمور السَّالفة، فإنَّ ذلك أحرى للثَّبات على المطلوب، فإنَّ تذكير الأمور الماضية ربَّما أثار الشَّرَّ فانتَكَس المرضُ، وعادت الحالُ إلى أشدَّ مِن الأولى»[12].

نصوص السُّنَّة في ذلك:

منها وصيَّتُه ﷺ العظيمَة في حجَّة الوداع، والَّتي كانَ منها قولُه ﷺ: «...**فَاتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ**

(4) «تفسير التحرير والتنوير» (5/43).
(5) أي أنه لا يقسم لها مع ضرائرها.
(6) «نور البصائر والألباب» (51).
(7) «منار السبيل» (2/225)، وانظر: «الشرح الممتع» (12/435).
(8) «روضة الطالبين» (5/676).
(9) «الأم» (5/285)، «تفسير الطبري» (6/710)، «التحرير والتنوير» (5/43).
(10) «تفسير ابن عطية» (4/46).
(11) يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: 34].
(12) «تيسير اللطيف المنان» (138 ـ 139) بتصرُّف يسير.

مُبَرِّح»[13].

فيُستَفادُ من هذا الحديث أنَّ الضَّرب مشروطٌ بكونه ضربَ تعزيرٍ وتأديبٍ، لا ضربَ تشفٍّ وانتقامٍ، وبكونه غير مبرِّحٍ أي غير مؤثِّرٍ ولا شاقٍّ.

قال بعضُهم: «ولعلَّه مأخوذٌ ـ أي لفظ «مُبَرِّح» ـ من بَرِح الخَفَاء إذا ظَهر، يعني ضربًا لا يظهر»[14].

فلا يكونُ مُدْميًا ولا شائنًا، يُتَجنَّبُ فيه الوجهُ والمواضعُ المخُوفة، وقد سُئل عنه ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما، فقال: «بالسِّواك ونحوه»[15].

ونصَّ بعض الفقهاء على أنَّ المرأةَ إذا كانت لا تترك النُّشوز إلاَّ بضَرب مخُوف لم يجُز تعزيرُها[16]، وكذا إذَا ظَنَّ عدمَ إفادته أو شَكَّ فيه؛ لأنَّه وسيلةٌ إلى إصلاح حالِها، والوسيلةُ لا تُشرَع عند ظنِّ عدَم تَرتُّب المقصود عليها.

قال ابنُ الملقِّن: «إنَّما يَضربُ إذا عَلِم أنَّه ينجَع، وإلاَّ فلا فائدةَ فيه؛ لأنَّ مَن لا يردعُه الوعيدُ والتَّهديد ولا السَّوطُ الشَّديد، فَلا حاجةَ إلى ارتكاب ما يُؤذي ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الرُّوم: 30]، فاللطفُ أوَّلاً أنجَح؛ لأنَّ الضَّرب يزيدُ في الإعراض، فإن لم يحصُل فالتَّهديد، وإلاَّ فما ربُّك بظَلاَّم للعَبيد»[17].

فإذا أسرف في ضربها وتلف بسبب ذلك عضو لزمه الضمان[18].

وحيث يعتقد كثير من الأزواج أن تأديبهم للزوجة كتأديبهم للصبي الصغير في حكمه وكيفيته، فإن من الفقهاء من نص على أن الزوج وإن جاز له الضرب فالأولى له العفو. كما ذكر الشافعي ـ بخلاف ضرب الصبي فإن مصلحته للصبي نفسه[19].

وينبغي أن يُراعى في ذلك أيضًا أن يكونَ في مكان خلوة الزَّوجَيْن، فلا يكونُ ضربًا أمامَ الأبناء فيورِّثُ في نفوسهم شرًّا وفسادًا، ولا أمام الغُرباء، يذلُّ الزَّوجةَ ويُهينُ كرامَتَها، فتزداد نشوزًا؛ لأنَّ المقصود علاجُ النُّشوز، لا إذلال الزَّوجة، ولا إفساد الأطفال.

□ ومن هذه النُّصوص أيضًا حديث عبد الله بن زَمْعَة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**بِمَ يَضْرِبُ أَحَدُكُمْ امْرَأَتَهُ ضَرْبَ الفَحْلِ أَوِ العَبْد، ثمَّ لَعَلَّهُ يُعَانِقُها؟**»[20].

والمراد بالفَحل: البَعير، وفي لفظ آخر: «**لا يجْلِدُ أَحَدُكُمْ امْرَأَتَه جَلْدَ العَبْد، ثمَّ يُجَامِعُهَا فِي آخرِ اليَوْم**»[21].

ففي سياق هذَا الحَديث «استبعَاد وقوع الأمرَيْن منَ العاقل أن يُبالغ في ضَرب امرأته ثمَّ يُجامعُها من بقيَّة يومه أو ليلَته، والمجامَعة والمضاجَعة إنَّما تُستَحسَنُ مع ميْل النَّفس والرَّغبة في العشرة، والمجلودُ غالبًا ينفرُ ممَّن جلَدَه، فوقَعت الإشارةُ إلى ذمِّ ذلك، وأنَّه وإن كانَ ولابدَّ فليكُن التَّأديب بالضَّرب اليَسير بحيثُ لا يحصُل منه النُّفور التَّامُّ»[22].

قال محمد رشيد رضا: «أذكر أنني هُديتُ إلى معناه العالي ـ أي الحديث ـ قبل أن أطلع على لفظه الشريف، فكنت كلما سمعت أن رجلا ضرب امرأته أقول: يا لله العجب! كيف يستطيع الإنسان أن يعيش عيشة الأزواج مع امرأة تضرب، تارة يسطو عليها بالضَّرب، فتكون منه كالشَّاة من الذِّئب، وتارة يذلُّ لها كالعبد طالبا منتهى القرب؟!»[23].

□ عن إياس بن عبد الله بن أبي ذباب قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لا تَضْرِبُوا إِمَاءَ الله**» فجَاءَ عُمَر إلى رسُول الله ﷺ فقال: «ذَئِرْنَ النِّسَاءُ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ» فرخَّص في ضَربهنَّ، فأطافَ بآل رسول الله ﷺ نساء كثير يشكونَ أزواجهُنَّ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «**لقَدْ طَافَ بآلِ مُحَمَّد نِسَاء كَثيرٌ يشكُونَ أزوَاجَهُنَّ ليسَ أولَئِكَ بخِيَارِكُمْ**»[24].

فقد أباح النَّبيُّ ﷺ الضَّربَ في الحقِّ، واختار مع ذلكَ ألاَّ يضربُوا لقَوله ﷺ: «**ليسَ أولئكَ بخيَارِكُم**»

قال الشَّافعي: «وفي قَوله ﷺ: «**لَنْ يَضْرِبَ خيَارُكُمْ**» دلالةٌ على أنَّ ضربَهُنَّ مباحٌ لا فرضٌ أن يُضرَبْنَ، ونختَار له من ذلكَ ما اختار رسولُ الله ﷺ، فنحبُّ للرَّجُل أن لا يضربَ امرأتَه في انبساط لسانها عليه، وما أشبَه ذلكَ»[25].

▣ وزعم المتفقِّهون العصريُّون:

أنَّ الإذنَ بالضَّرب الَّذي ورد به القُرآن كانَ في أوَّل الإسلام، ثمَّ لَمَّا أُقيم نظامُ القضاء نُسخ الضَّرب للاستغناء عنه برفْع الأمر للحُكَّام، والَّذي دعَاهُم إلى هذَا هو الفرار من تشنيع الكفَّار على

(13) رواه مسلم (1218).
(14) «مواهب الجليل» (263/5).
(15) «تفسير الطبري» (712/6)، «جامع القرطبي» (178/5).
(16) «منح الجليل» (335/7).
(17) «التوضيح لشرح الجامع الصحيح» (42/25ـ43).
(18) «الشرح الممتع» (104/14).
(19) «روضة الطالبين» (676/5).
(20) البخاري (6042) ومسلم (2855).
(21) البخاري (5204).
(22) «فتح الباري» (303/9).
(23) «تفسير المنار» (76/5).
(24) رواه أبو داود (2146).
(25) «الأم» (285/5).

الإسـلام، بأنَّه هضَـمَ جانبَ المرأة حتَّى جعل للزَّوج أن يضـربَها إذا شاء.

وجوابُ ذلكَ أن يُقال: إنَّ الرَّجُل إذا كان عاقلاً والمرأةُ جاهلةً طائشةً، كان للضَّـرب فائدة، وهي التَّخويف وإقامة هيبة الزَّوج، فإنَّ صـلاحَ هذا الأخير يمنعُه من رفع امرأته إلى القاضـي، وقد يكونُ ذنبُها ممَّا يعتَريه عارٌ، فيكبُر ويشقُّ عليه إظهارُه، وهي مع طيشـها لا تردَعُها موعظةٌ، ولا يردعُها قضـاء، بل تزداد طيشًـا وجهلاً إذا انفتَح لها باب المرافَعة.

فإذا قيل لهذَا الرَّجل: اذهَبْ فخاصـمها إلى القاضـي، آثَرَ طلاقَها؛ لأنَّه لا يسـتَطيع أن يصـبر على طيشِها، ولا أن يرافعها إلى الحاكـم، ولا ريـبَ أنَّ الطَّلاقَ مصـيبةٌ لها، فـالإذن للرَّجُل الفاضـل الصَّـالح بتَأديب المرأة الجاهلَة الطَّائشـة مصلحةٌ لها عند مَن يعقل.

وإن كانَت المرأةُ عاقلةً صالحةً، والرَّجُل جاهلا طائشًا، فمِثل هذا لا يرتَدعُ لوعظ، فيكونُ باب الرَّفْع إلى القَاضي مفتوحًا.

وإن كانا معًا جاهلين فقَد (وافَقَ شنٌّ طبَقَة).

والحاصـل أنَّ الإذنَ بالضَّرب بالشَّرط الَّذي بيَّنته السُّنَّة فيه مصـلحةٌ معلومةٌ، ومفسَـدةٌ موهُومةٌ، وهذه المفسدةُ - إن حصلت - تندفـع بفَتـح باب الرَّفـع إلى الحـكَّام، وبهذا ونحـوه ينبغي أن يُدفَع تشـنيعُ الكفَّار والمُلحدين، فأمَّـا الانهزامُ أمامهم والالتجاء إلى تَخريـب الدِّين، فلا ينبغي أنْ يكونَ ممَّن له حظٌّ من الإيمان واليَقين، وخيرٌ لمن لم يُحسِـن إلاَّ هذا الضَّـرب من الدِّفاع أن يَدَع الدِّفاعَ رأسًا[26].

◘ تأمَّل إن كنت ضرَّابا:

□ تأمَّـل في قولـه تعـالى: ﴿فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤﴾ [سورة النساء]، جـاء بهـذا الأسـلوب بعد النَّهي عن البَغي؛ لأنَّ الرَّجـل إنَّما يبغي على المَرأة بما يحسُّـه في نفسـه من الاسـتعلاء عليهـا، وكونه أقـدَر منها، فذكَّـره الله تعالى بعلوِّه وكبريائـه وقُدرته عليه، ليتَّعظ ويخشَـع ويتَّقي الله فيها، وتأمَّل في هذا المعنى حديثَ أبي مسـعود البدري رضي الله عنه قال: «كنتُ أضربُ غلامًا لي بالسَّوط، فسمعتُ صوتًا من خَلفي: اعْلَم أبَا مسعُود! فلَمْ أفهَم الصَّوتَ منَ الغَضَب، قال: فلمَّا دنَا منِّي، إذَا هُو رسول الله ﷺ، فإذَا هُو يقول: اعْلَم أبا مسعُود! اعْلَم أبا مسـعُود! قال: فألقيتُ السَّـوط من يَدي، فقَال: اعْلَم أبا مسـعود أنَّ الله أقدَر عليكَ منكَ علَى هذَا الغُلام، قال: فقلتُ: لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا»[27].

□ تأمَّـل حينَما ذكَرت فاطمَة بنتُ قَيس للنَّبـيِّ ﷺ أنَّ معاويةَ ابنَ أبي سُـفيان وأبا جَهْم خطبَاها، فقَال ﷺ: «**أمَّا معاوية فرجلٌ تربٌ لا مالَ لَه، وأمَّا أبو جَهْم فرَجُل ضَرَّابٌ للنّساء، ولَكن أُسَامَة...**؛ فتَزَوَّجْتُه فاغْتَبَطْتُ»[28]، فقد صَرفُ النَّبيُّ ﷺ فاطمَة عن أبي جَهْم رضي الله عنه لمكان العَيْب الَّذي فيه، وهُو كثرةُ ضَربه للنِّساء.

□ تأمَّل في قول سَـلمان رضي الله عنه لعَبْد له قصَّر في عمَله: «لولا أنِّي أخافُ القصاصَ - أي يوم القيامة - لأَوجَعْتُكَ»[29]، وقول عمَّار رضي الله عنه: «لا يضْـربُ أحَدٌ عبدًا لَهُ، وهُـو ظالمٌ له إلاَّ أُقِيدَ منْهُ يومَ القيامَـة»[30]، فإذا كانَ هذا حالُ العَبيد يومَ القيامَة، فكيفَ يكونُ حالُ الزَّوجات في القصاص؟

□ تأديبُك لزَوجَتك بالضَّرب وإن كانَ مشروعًا، فإنَّه ليسَ لكَ فيه أسـوةٌ بمعلِّمك و مُؤدِّبك ﷺ، وتأمَّل عائشـة وهيَ تصـفُ لكَ حالَها معَه ﷺ وهيَ تُغاضبُه وهُو رسُول الله، قالت: إنَّ النَّبيَّ ﷺ اسـتَعذر أبَا بَكر منها، ولم يظنَّ النَّبيُّ ﷺ أن ينَالهَا بالَّذي نالَها، فرفَع أبو بكر يدَه فلطَمَها وصَكَّ في صَدرها، فوَجَد من ذلكَ النَّبيُّ ﷺ وقال: «**يا أبَا بكر! ما أنَا بمُسْتَعْذرِكَ منها بعدها أبدًا**»[31].

وقوله ﷺ: «**بمُسْتَعْذرك**» أي: كُن عَذيري منهَا إنْ أدَّبتُها، أي قم بعذري في ذلك[32].

□ تأمَّـل حالَكَ وأنتَ تضـربُ، فلقلَّما خَلا ضـربٌ من هُجْر وقُبْـح في الـكَلام، فهُما قَرينَان بل صـنوان، يأتي اللِّسـانُ ليَزيد مـن حدَّة العُنـف والعُدوان، ويهـدمُ بذلك ما تبقَـى في الزَّوجيَّة مـن بُنيـان وأركَان، فيتقوَّضُ الصَّـرح وينغلُ الجُـرح، والمرأةُ في ذلكَ بينَ ذُعْر وإذعَان، لا تنبسُ ببنْت شَـفَة للشَّكوى، ولا يتحرَّكُ منها بَنَان، يتبلَّدُ منها الإحساسُ، وتستَوحشُ منَ النَّاس، فبعدَما أسـلَمَت قيادَها لتَسـير معَ حاد بأمان، إذ بخُرافَة الغُول صـارت حقيقَةً للعيان، وهُو ذا الحَادي يتحوَّل إلى عاد ليُدميَ منهَا القَلب قبل الجَسَد، ومثلها في طَعمها سهلٌ ليزْدَرد، لكنَّه سريعًا ما يشعُر بالنَّدم على مَا أخَّر وقدَّم، ويُصـيبُه لذلكَ مغصٌ ونغصٌ، فيعتَذر متعلِّلاً بأنَّه أُصـيب للحظَة في عقله بعَطب، أو إغلاق من غضَـب، أو أنَّ به عمل من طَب[33]؛ أوَلَيس النَّبيُّ ﷺ قَد ردَّد مرارًا، فقال:

(26) انظر: «فضل الله الصمد» (1/82-83).

(27) رواه مسلم (1659).

(28) رواه مسلم (1480).

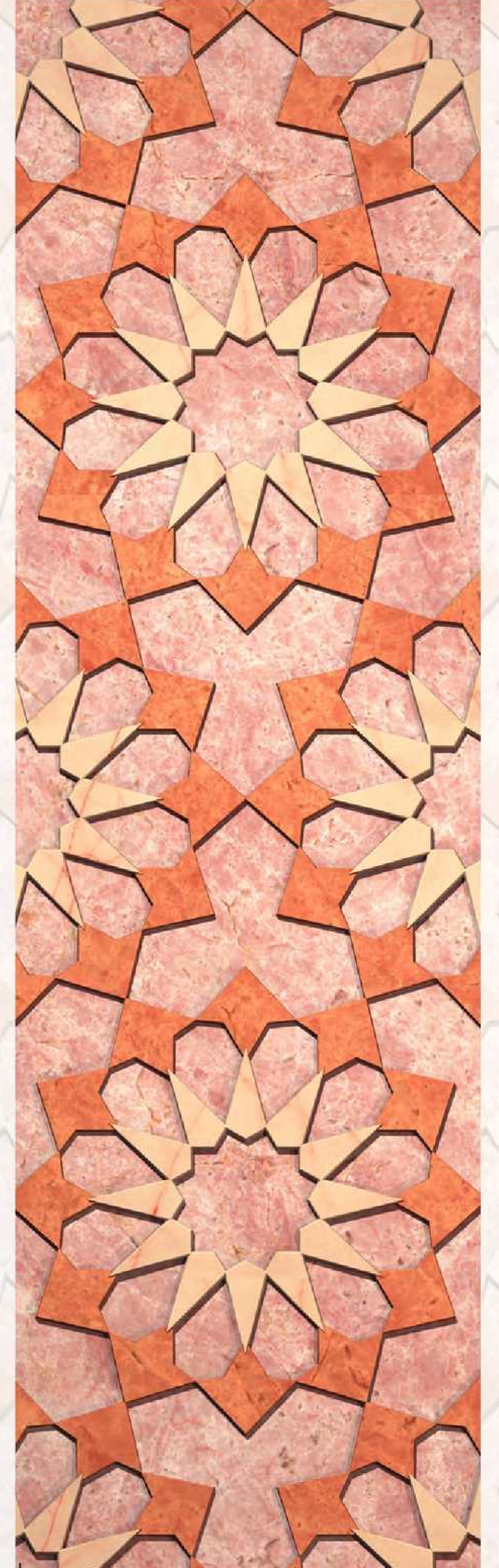
(29) «صحيح الأدب المفرد» (135).

(30) «صحيح الأدب المفرد» (134).

(31) «صحيح ابن حبان» (4185)، و«الصحيحة» (2900).

(32) «النهاية في غريب الحديث».

(33) كناية عن السحر.



«لا تَغْضَبْ»؟[34].

□ يكفيكَ أن تَعلَم ـ إن كنتَ ضـرَّابًا ـ أنَّك قَد أفسَـدتَ فسادًا ممتـدًّا لا إلى زوجتك فحَسـب، بل إلى أولادك أيضًـا، فهيَ لهم بمَثابة حبلِ الوَريد، فإمَّا أن تُصيبَهُم وقَد أصَبْتَها، وإمَّا أن تقطَعَ هذَا الحَبلَ عنهم إن كُنتَ قَد قَطعتَها.

فينشـأ الولـدُ أحدَ شخصَـيْن: مُبغضٌ لأبيه يَـرى فيه معاني الحقد والكَراهيَّة كلَّها مجتَمعَةً، أو متسـلِّطًا متَعَجْرفًا، تصـلُ به عدوانيَّتُه إلى ضَرب أمِّه، بل بها تبتَدئ، ولا يسلَمُ مِن هذَا إلاَّ مَن سلَّمَه اللّه.

وهذه بعض الأعراضُ المهدِّمـة الَّتي يُعاني منها الطِّفل الَّذي يُعاينُ مشـاهدَ العُنـف والعُدوان مِن أبيه وأمِّـه، وقَد يظهَر منهَا واحدٌ أو أكثَر:

ـ اضطراباتٌ نفسيَّةٌ ذات الطَّابع السَّلبي.

ـ حرمان منَ النُّموِّ الذِّهني والعَاطفي، وكثيرًا ما يفكِّر الطِّفل في حلٍّ لاجتناب الوسَط العائلي.

ـ إحساسُـه بالذَّنـب وأنَّه سـببٌ في مُعانـاة الأمِّ، أو على الأقل شُعور مدَمِّر بالعَجز عن إيقَاف مُعانَاة الأمِّ، ودفْع آلامِها.

ـ العُدوانيَّة.

ـ الخوف في الوسَط الاجتماعي.

ـ شُـعور بالمسؤوليَّة اتِّجاه الإخوة الصِّغار، والتَّفكير في طريقَةٍ لحمايتهم وهذَا ما يورِّثُ شُعور الطِّفل بالتَّعب والإنهاك.

وللقَارئ بعد هذَا أن يَحكُم إن كانَ هذَا الواقعُ المنقُول مطابقًا لما في الأذهان.

▣ وفي خاتمة المقال نصيحة لكل زوجين:

الرفـق معقود معه النجاح، والصَّـبر عطاء لمن كتب له الفوز والفـلاح، وهما مقامان جليلان، يكفي صـاحبهما أنه مسـتريح القلب، مطمئن النفس، قد وطَّن نفسَه على ما يصيبه من الأذى، كما وطنها على الصـفح والعفو، فليس يجاري سـفيها في سفهه، ولا ينـال من خلقه متسـلط في تيهه، قد تيسـر لـه الأخذ بالعفو، والأمر بالعرف، والإعراض عمَّن جهل عليه قولا وفعلا، واستراح بأدبه عن التقلب في سـخط اللّه، وعداوة الخلق ومعاتبة النفس، وقد قيل:

اصبر على خُلُق مَن تُعاشره

ودَارِه فاللَّبيـبُ مَـن دَارَى

(34) في حديث رواه البخاري (6116).

سليم مجوبي
مرحلة الدكتوراه بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية



الغلو في الديـــــن

إنَّ أصلَ الغلوِّ: الارتفاعُ والإفراط ومجاوزة القدر في كلِّ شيء[1]، وهو في الاصطلاح: مجاوزة ما حدَّه الشَّرع وقدَّره سواء في باب الاعتقاد أو العمل.

قال الشَّيخ سليمان بن عبد الله: «وضابطه تعدِّي ما أمر الله به»[2].

ولقد تنوَّع أسلوب الكتاب والسُّنَّة في التَّحذير من الغلوِّ، ومن ذلك:

□ النَّهي الصَّريح:

ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ [النساء: 171].

وقوله ﷺ: «**وَإِيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ في الدِّينِ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الغُلُوُّ في الدِّينِ**»[3].

□ مدح الاعتدال والوسطيَّة:

إذ الغلوُّ هو أحد طرفي القصد والاعتدال، ويقابله الجفاء.

ومن الآيات في مدح الوسطيَّة والتَّرغيب فيها، قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا﴾ [البقرة: 143].

وقوله: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: 110].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان: 67].

□ الدَّعوة إلى التَّيسير ورفع الحرج:

إذ الغلوُّ يفضي إلى التَّشدُّد، والتيسيرُ ضدُّ ذلك.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: 185].

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج: 29].

(1) «لسان العرب» (3290/5)
(2) «تيسير العزيز الحميد» (ص305)
(3) النَّسائي (3057)، وابن ماجه (3029)، وصحَّحه الألباني.

وقال ﷺ: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ**»[4].

□ الدَّعوة إلى الرِّفق:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ [النساء: 29].

وقال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَى العنت وَمَا لاَ يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ**»[5].

وللغلوِّ في الدِّين أسبابٌ عديدة، أذكر منها ما يلي:

○ الجهل بالنُّصوص الشَّرعيَّة ومعانيها:

قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: 9].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: 24].

وقال ﷺ عن الخوارج: «**يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ**»[6].

قال النَّووي: «معناه: أنَّ قومًا ليس حظُّهم من القرآن إلاَّ مروره على اللِّسان، فلا يجاوز تراقيَهم ليصل قلوبهم، وليس ذلك هو المطلوب؛ بل المطلوب تعقُّله وتدبُّره بوقوعه في القلب»[7].

ومن ذلك الجهلُ بالسُّنَّة الصَّحيحة، والاعتمادُ على الأحاديث الضَّعيفة والموضوعة، كما وقع لكثير من الغلاة في التَّعبُّد من الصُّوفيَّة وغيرهم.

ويدخل في الجهل بالنُّصوص الجهلُ باللُّغة العربيَّة وبمدلولات الألفاظ والعامِّ والخاصِّ والمطلق والمقيَّد والنَّاسخ والمنسوخ ونحوها.

قال الشَّاطبي: «ويمكن أن يكون من خفيِّ هذا الباب مذهبُ الخوارج في زعمهم أن لا تحكيم، استدلالاً بقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: 57]؛ فإنَّه مبنيٌّ على أنَّ اللَّفظ ورد بصيغة العموم فلا يلحقه تخصيص، فلذلك أعرضوا عن قول الله تعالى: ﴿فَٱبۡعَثُواْ

(4) البخاري (39).
(5) مسلم (2593).
(6) البخاري (3344)، ومسلم (1063).
(7) «شرح النَّووي على مسلم» (105/6).

﴿حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [النساء: 35]، وقوله: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: 95]، وإلاَّ فلو علموا تحقيقًا قاعدة العرب في أنَّ من العموم ما يراد به الخصوص؛ لم يسرعوا إلى الإنكار ولقالوا في أنفسهم: لعلَّ هذا العام مخصوص؟ فيتأوَّلون»[8].

○ البعد عن منهج السَّلف:

فقد وقع الانحراف عند كثير من الفرق الضَّالَّة بسبب جهلهم وبعدهم عن منهج الصَّحابة والتَّابعين ومن تبعهم في فهم النُّصوص وتطبيقها.

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «...فارضَ لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم؛ فإنَّهم على علم وقفوا، وببصر نافذ كَفُّوا، وهم على كشف الأمور كانوا أقوى، وبفضل ما كانوا فيه أولى... وقد قصَّر قومٌ دونهم فجفَوا وطمح عنهم أقوام فغلَوا، وإنَّهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم...»[9].

فالرُّجوع إلى منهج السَّلف عصمةٌ من الفتن، ومن أمثلة ذلك ما رواه مسلم في «صحيحه» (191) عن يزيد الفقير قال: «كنت قد شغفني رأيٌ من رأي الخوارج، فخرجنا في عصابة ذوي عدد نريد أن نحجَّ، ثمَّ نخرجَ على النَّاس، قال: فمررنا على المدينة، فإذا جابر بن عبد الله يحدِّث القوم ـ جالس إلى سارية ـ عن رسول الله ﷺ، قال: فإذا هو قد ذكر الجهنميِّين؛ قال: فقلت له: يا صاحب رسول الله ما هذا الَّذي تحدِّثون؟! والله يقول: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: 192] و﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: 20] فما هذا الذي تقولون؟! قال فقال: أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم، قال: فهل سمعت بمقام محمَّد عليه السلام ـ يعني الَّذي يبعثه الله فيه؟ ـ قلت: نعم، قال: فإنَّه مقام محمد ﷺ المحمود الَّذي يُخرج الله به من يُخرج، قال: ثمَّ نعتَ وضع الصِّراط ومرَّ النَّاس عليه، قال: وأخاف أن لا أكون أحفظ ذاك، قال: غير أنَّه قد زعم أنَّ قومًا يخرجون من النَّار بعد أن يكونوا فيها، قال: ـ يعني ـ فيخرجون كأنَّهم عيدان السَّماسم[10] قال: فيدخلون نهرًا من أنهار الجنَّة، فيغتسلون فيه، فيخرجون كأنَّهم القَراطيس[11]، فرجعنا، قلنا: ويحكم! أَتُرَوْن الشَّيخ يكذب على رسول الله ﷺ؟ فرجعنا، فلا والله ما خرج منَّا غير رجل واحد».

(8) «الاعتصام» (2/40).
(9) أبو داود (4612) وصححه الألباني.
(10) قيل جمع سمسم، وهو الحبُّ المعروف. وعيدانه ترى سوداء كأنَّها محترقة إذا وضعت في الشَّمس. وقيل غير ذلك. انظر «شرح النَّووي على مسلم» (3/49).
(11) جمع قرطاس، وهو الصَّحيفة. شبَّههم بذلك لشدَّة بياضهم بعد اغتسالهم، وزوال ما كان عليهم من السَّواد. قاله النَّووي.

○ الإعراض عن العلماء:

قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 43].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: 83].

وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «**حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا؛ اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالاً فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»[12].

ولهذا كان أوَّلَ طريق الغلاة من الخوارج الطَّعنُ في العلماء وتنفيرُ النَّاس عن سماع كلامهم، حتَّى يخلوَ لهم الأمر، فيتسلَّطون على العامَّة.

وكان الرُّجوعُ إلى العلماء أمانًا من الغلوِّ، كما في حديث يحيى بن يَعْمَر قال: «كان أوَّلَ من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرَّحمن الحميري حاجَّين أو معتمرَين، فقلنا: لو لقينا أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عمَّا يقول هؤلاء في القدر؛ فوفِّق لنا عبد الله بن عمر ابن الخطَّاب داخلاً المسجد... الحديث[13]، فهؤلاء سلموا من الغلو في باب القدر لما رجعوا إلى أهل العلم من أصحاب النَّبيِّ ﷺ.

يقول الطَّيب العقبي: «العلماء هم حملة هذا الدِّين، وهم المسؤولون عن تبليغه وهم الذابُّون عنه والمدافعون عن حماه، فمن استمسك بغرزهم واهتدى بهديهم نجا، ومن صدَّ عنهم وأعرض عمَّا جاؤوا به ضلَّ وغوى»[14].

ويقول الميلي: «إنَّ الأمَّة متى فَقدت العالم البصير، والدَّليل النَّاصح، والمرشد المهتدي؛ تراكمت على عقولها سحائبُ الجهالات، وران على بصائرها قبائحُ العادات، وسهُل عليها الإيمان بالخيالات، فانقادت لعالم طمَّاع، وجاهل خدَّاع، ومرشد دجَّال، ودليل محتال، وازدادت بهم حَيرتُها واختلَّت سيرتها، والتبست عليها الطَّرائق، وانعكست لديها الحقائق، فتتَّهم العقل، وتَقبل المُحال، وتشرُد من الصَّواب، وتأنس بالسَّراب... وفي مثل هذه الحالة جاء حديث «الصَّحيحين» عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ...»[15]، وذكر الحديث المتقدِّم.

○ اتِّباع المتشابه من النُّصوص والتَّأويل الفاسد:

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ

(12) البخاري (100)، ومسلم (2673).
(13) «صحيح مسلم» (8).
(14) «جريدة السُّنَّة» (1/12).
(15) «الشِّرك ومظاهره» (ص161).

﴿الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: 7].

وقال ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ**»[16].

قال شيخ الإسلام: «فلهذا كان ضلال بني آدم من قبل التّشابه»[17].

وقال ابن القيّم: «فأصل خراب الدّين والدّنيا إنّما هو من التّأويل الّذي لم يُرده الله ورسوله بكلامه، ولا دلَّ عليه أنّه مراده، وهل اختلف الأمم على أنبيائهم إلاَّ بالتّأويل؟ وهل وقعت في الأمّة فتنةٌ كبيرة أو صغيرة إلاَّ بالتّأويل؟ فمن بابه دُخل إليها، وهل أريقت دماء المسلمين في الفتن إلاَّ بالتّأويل؟»[18].

○ تزيين الشّيطان:

قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: 24].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر: 8].

قال ابن القيّم: «وما أمرَ الله بأمر إلاَّ وللشّيطان فيه نزعتان: إمَّا إلى تفريط وإضاعة، وإمَّا إلى إفراط وغلوٍّ، ودينُ الله وسطٌ بين الجافي عنه والغالي فيه، كالوادي بين جبلين، والهدى بين ضلالتين، والوسط بين طرفين ذميمين.

فكما أنَّ الجافيَ عن الأمر مضيِّع له؛ فالغالي فيه مضيِّع له: هذا بتقصيره عن الحدِّ وهذا بتجاوزه الحدَّ»[19].

وهناك أسباب أخرى تربويَّة ونفسيَّة واجتماعيَّة يطول المقام بذكرها[20].

بعض مظاهر الغلوِّ في باب التّوحيد والإيمان

تعدَّدت مظاهر الغلوِّ في هذا الباب، كما تعدَّدت أسبابه، ومن أمثلة ذلك:

□ **الغلوُّ في الصّالحين** إلى درجة وصفهم بما هو من خصائص الرّبوبية والألوهيَّة؛ كعلم الغيب والتّصرُّف في الكون وإحياء الموتى وإعطاء الرّزق، وصرفِ العبادة لهم من دعاء وذبح ونذر ونحو ذلك.

والغلوُّ في الصّالحين أوَّلُ أسباب ظهور الشّرك في الأمم السّابقة وفي هذه الأمَّة: أمَّا الأمم السّابقة؛ فقد قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: 23]، قال ابن عبَّاس: «...أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلمَّا هلكوا أوحى الشّيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم الَّتي كانوا يجلسون أنصابًا، وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبد، حتَّى إذا هلك أولئك، وتنسَّخ العلم، عُبدت»[21].

وفي حقِّ أهل الكتاب قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 17]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ [التوبة: 30]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: 73].

وأمَّا هذه الأمة؛ فقد غلا كثيرٌ منها في رسول الله ﷺ، ووصفوه بما لا يستحقُّه إلا الله، وصرفوا له أنواعا من العبادة، مشابهين في ذلك من تقدَّمهم، مع أنَّه ﷺ قد حذَّرهم من ذلك بقوله: «**لاَ تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ**»[22]، ولم يتوقَّف الأمر عند هذا الحدِّ، بل تعدَّوه إلى غيره ممَّن يظنُّون فيهم الصّلاح والتّقوى -وقد يكونون كذلك- فصاروا يعبدونهم من دون الله، كما فعلت الرّافضة مع عليٍّ وأهل بيته، وكما فعلت المتصوِّفة مع شيوخها.

قال شيخ الإسلام: «...فليُعلم أنَّ المنتَسب إلى الإسلام والسُّنَّة في هذه الأزمان قد يمرق أيضًا، وذلك بأسباب: منها الغلوُّ الذي ذمَّه الله في كتابه؛ حيث قال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾، وكذلك الغلوُّ في بعض المشايخ، بل الغلوُّ في عليِّ بن أبي طالب، بل الغلوُّ في المسيح عليه السلام. فكلُّ من غلا في نبيٍّ أو رجل صالح، وجعل فيه نوعًا من الإلهيَّة، مثل أن يقول: يا سيِّدي فلان! انصُرني أو أغثني أو ارزقني أو اجبرني أو أنا في حسبك، ونحو هذه الأقوال؛ فكلُّ هذا شِرك وضلال، يُستَتاب صاحبه، فإن تاب وإلا قتل...»[23].

□ **الغلوُّ في تنزيه الله -عزَّ وجلَّ-** الَّذي أفضى بأصحابه إلى تعطيله عمَّا يستحقُّه من صفات الكمال ونعوت الجلال، ويقابله الغلوُّ في الإثبات الَّذي أفضى إلى التَّشبيه والتَّمثيل، والحقُّ وسطٌ بين هذا وهذا[24].

(16) البخاري (4547)، ومسلم (2665).

(17) «التّدمريَّة» (ص59).

(18) «إعلام الموقّعين» (250/4).

(19) «مدارج السّالكين» (496/2).

(20) انظر: «مشكلة الغلوِّ في الدِّين» لعبد الرَّحمن اللّويحق (653/1).

(21) «صحيح البخاري» (4920).

(22) «صحيح البخاري» (3445).

(23) نقلاً عن «تيسير العزيز الحميد» (ص 228)، وعزاه إلى «الرِّسالة السنيَّة»، ولم أقف عليها، وانظر كلاما يشبهه في «مجموع الفتاوى» (383/3 و395).

(24) الَّذي يظهر أنَّه ما من طرفين متقابلين بالنِّسبة للحقِّ إلاَّ والأوَّل غال في الجانب

قال شيخ الإسلام واصفًا أهل السُّنَّة: «وهم في الصِّفات وسط بين المعطِّلة الَّذين ينفون صفات الله أو بعضها ويشبِّهونه بالجماد والمعدوم، وبينَ الممثِّلة الَّذين يمثِّلون صفاته بصفات خلقه فيصفون الله بصفات خلقه.

فيصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تعطيل ولا تمثيل ومن غير تكييف ولا تحريف»[25].

□ **الغلوُّ في ملاحظة القدر وشهود معاني الرُّبوبيَّة** الَّذي أفضى إلى الاستهانة بالشَّرع وتعطيله، وهذا حال الجَبريَّة من الجهميَّة والمتصوِّفة.

قال شيخ الإسلام: «فمن نظر إلى القدر فقط، وعظَّم الفناء في توحيد الرُّبوبيَّة، ووقف عند الحقيقة الكونيَّة؛ لم يميِّز بين العلم والجهل، والصِّدق والكذب، والبرِّ والفجور، والعدل والظُّلم، والطَّاعة والمعصية، والهدى والضَّلال، والرَّشاد والغيِّ، وأولياء الله وأعدائه، وأهل الجنَّة وأهل النَّار»[26].

ويقابل ذلك: الغلوُّ في ملاحظة الأمر والنَّهي، والثَّواب والعقاب، وما يترتَّب عليه من تعظيم مشيئة العبد وقدرته واختياره، ممَّا أفضى إلى إنكار علم الله وكتابته أو إنكار عموم مشيئته وخلقه، وهذا حال القدريَّة.

قال شيخ الإسلام: «وأهل الضَّلال الخائضون في القدر انقسموا إلى ثلاث فرق: مجوسيَّة، ومُشركيَّة، وإبليسيَّة .

فالمجوسيَّة: الَّذين كذَّبوا بقدر الله وإن آمنوا بأمره ونهيه، فغلاتهم أنكروا العلم والكتاب، ومقتصدوهم أنكروا عموم مشيئته وخلقه وقدرته، وهؤلاء هم المعتزلة ومن وافقهم...»[27].

والحقُّ وسط بين هذا وهذا.

قال شيخ الإسلام عن أهل السُّنَّة: «وهم في القدر وسط بين النُّفاة للقدر من المعتزلة وغيرهم، وبين الجهميَّة المثبتة الَّذين ينكرون حكمة الله في خلقه وأمره»[28].

□ **الغلوُّ في نصوص الوعيد** الَّذي أفضى إلى تكفير مرتكب الكبيرة وتخليده في النَّار وإنكار الشَّفاعة، وهو حال الوعيديَّة من الخوارج والمعتزلة، ويقابله الغلوُّ في نصوص الوعد، الَّذي أفضى إلى التَّهوين من شأن المعاصي والشَّهادة لأهلها بالإيمان الكامل، الَّذي جفا فيه الثَّاني في حين غلا الثَّاني في الجانب الَّذي جفا فيه الأوَّل.

(25) «الصَّفديَّة» (2/313).
(26) «التَّدمريَّة» (ص130).
(27) المصدر السابق.
(28) «الصَّفديَّة» (2/313).

وهذا حال المرجئة.

والحقُّ وسط بين هذا وهذا.

قال شيخ الإسلام عن أهل السُّنَّة: «وهم وسط في الوعيد بين الوعيديَّة من الخوارج والمعتزلة، وبين المرجئة الَّذين لا يجزمون بتعذيب أحد من فسَّاق الأمَّة»[29].

□ **الغلوُّ في المتبوعين من العلماء والأئمَّة** الَّذي أفضى إلى التَّقليد المذموم والتعصُّب الأعمى، وجعل كلامهم أصلاً تُردُّ إليه نصوص الكتاب والسُّنَّة، ممَّا أدى إلى فشوِّ البدع وتفرُّق المسلمين.

يقول الإبراهيمي: «والمذاهب الفقهيَّة في حدِّ ذاتها ليست هي الَّتي فرَّقت المسلمين، وليس أصحابُها هم الَّذين ألزموا النَّاس بها أو فرضوا على الأمَّة تقليدهم، فحاشاهم من هذا، بل نصحوا وبيَّنوا وبذلوا الجهد في الإبلاغ وحكَّموا الدَّليل ما وجدوا إلى ذلك السَّبيل... وإنَّما الَّذي نَعدُّه في أسباب تفرُّق المسلمين هو هذه العصبيَّة العمياء الَّتي حدثت بعدهم للمذاهب، والَّتي نعتقد أنَّهم لو بُعثوا من جديد إلى هذا العالم لأنكروها على أتباعهم ومقلِّدتهم وتبرَّؤوا إلى الله منهم ومنها؛ لأنَّها ليست من الدِّين الَّذي ائتُمنوا عليه، ولا من العلم الَّذي وسَّعوا دائرته، وكيف يرضَون هذه العصبيَّة الرَّعناء، ويُقرُّون عليها مقلِّديهم؛ ومن آثارها فيهم جعلُ كلام غير المعصوم أصلاً، وكلامِ الله ورسوله فرعًا يُذكر للتَّقوية والتَّأييد إن وافق، فإن خالف أُرغم بالتَّأويل حتَّى يوافِق؛ وهذا شرُّ ما بَلغته هذه العصبيَّة بأهلها. ومن آثارها فيهم معرفةُ الحقِّ بالرِّجال، ومن آثارها فيهم اعتبارُ المخالِف في المذهب كالمخالف في الدِّين، يُختلف في إمامته ومصاهرته وذكاته وشهادته، إلى غير ذلك ممَّا نَعُدُّ منه ولا نعدِّده»[30].

لعلاج الغلوِّ طرق كثيرة يكمِّل بعضُها بعضًا، من أهمِّها في هذا الباب:

○ الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة والإيمانُ والتَّسليم لما جاء فيهما، فذلك عصمة من كلِّ ضلال.

قال ﷺ: «**إنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ الله وَسُنَّتِي**»[31].

وقال تعالى لأهل الكتاب بعدما حذَّرهم من الغلوِّ في المسيح: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ﴾ [النساء: 171].

(29) المصدر السابق.
(30) «سجِّل مؤتمر جمعيَّة العلماء» (24.23).
(31) رواه الحاكم (1/93) وصحَّحه، وسكت عنه الذَّهبي، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (2937).

وقال تعالى عن أهل الكتاب بعدما بيَّن لهم أنَّ المسيح وأمَّه بشران يأكلان الطَّعام: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: 75][32].

○ الاعتماد على فهم السَّلف الصَّالح، وفي مقدِّمتهم أصحابُ رسول الله ﷺ؛ فإنَّهم عايشوا التَّنزيل وعلموا التَّأويل، ثمَّ مَن بعدهم من أهل القرون المفضَّلة ومن سار على طريقتهم؛ قال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة الفاتحة].

قال ابن القيم: «فكلُّ من كان أعرف للحقِّ وأتبع له؛ كان أولى بالصِّراط المستقيم...، ولهذا فسَّر السَّلفُ الصِّراط المستقيم وأهلَه بأبي بكر وعمر وأصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم، وهو كما فسَّروه؛ فإنَّه صراطهم الَّذي كانوا عليه، وهو عين صراط نبيِّهم، وهم الَّذين أنعم الله عليهم وغضب على أعدائهم، وحكم لأعدائهم بالضَّلال»[33].

وقال ابن باديس: «فهومُ أئمَّة السَّلف الصَّالح، أصدق الفهوم لحقائق الإسلام ونصوص الكتاب والسُّنَّة»[34].

وكان من قصَّة الشَّيخ الَّذي ناظر ابنَ أبي دُؤاد عند الواثق، أن قال له: «... فشيءٌ لم يدعُ إليه رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا عليٌّ رضي الله عنهم تدعو النَّاس أنت إليه؟ ليس يخلو أن تقول: علموه أو جهلوه. فإن قلتَ: علموه وسكتوا عنه؛ وسِعَنا وإيَّاك ما وسِع القومَ من السُّكوت، وإن قلتَ: جهلوه وعلمتُه أنا؛ فيا لُكع بنَ لُكع! يجهلُ النَّبيُّ ﷺ، والخلفاء الرَّاشدون رضي الله عنهم شيئًا، تعلَمه أنت وأصحابُك...؟»[35].

○ طلب العلم الشَّرعي المُعين على فهم الكتاب والسُّنَّة، ويدخل في ذلك ما يسمَّى علوم الآلة كاللُّغة ونحوها.

قال شيخ الإسلام: «ولهذا يحتاج المتديِّن المتورِّع إلى علم كثير بالكتاب والسُّنَّة والفقه في الدِّين، وإلا فقد يُفسد تورُّعَهُ الفاسد أكثر ممَّا يُصلحه، كما فعله الكفَّار وأهل البدع من الخوارج والرَّوافض وغيرهم»[36].

○ التلقِّي عن العلماء الرَّبَّانيِّين المعروفين بالتَّوحيد والسُّنَّة، فإنَّهم ورثة الأنبياء حقًّا.

قال الشَّيخ العربي التبسِّي: «ولا يستحقُّ هذا الميراث إلا من هو أهلٌ لوصفه والحكم له بالعلم، لا أولئك الَّذين سمَّوا أنفسهم علماء، وإن قعدَت بهم موانعُ الإرث في هذا الباب، ممَّن اختار صراطَ المغضوب عليهم والضالِّين على صراط الَّذين أُنعم عليهم»[37].

وقال ابن باديس: «فالَّذين أحدثوا في الدِّين ما لم يعرفه السَّلف الصَّالح، لم يَقتدوا بمن قبلهم، فليسوا أهلاً لأَنْ يقتديَ بهم مَن بعدَهم، فكلٌّ من اخترع وابتدع في الدِّين ما لم يعرفه السَّلف الصَّالح فهو ساقطٌ عن رُتبة الإمامة فيه»[38].

○ الجمع بين الأدلة وردُّ المتشابه إلى المحكم.

قال تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: 7].

قال الشَّاطبي: «لَمَّا خُصَّ الزَّائغون بكونهم يتَّبعون المتشابه أيضًا؛ عُلم أنَّ الرَّاسخين لا يتَّبعونه، فإن تأوَّلوه فبالرَّدِّ إلى المحكَم، بأنْ أمكَن حمله على المحكم بمقتضى القواعد»[39].

وقال شيخ الإسلام: «لا ريب أنَّ الكتاب والسُّنَّة فيهما وعد ووعيد... والعبد عليه أن يصدِّق بهذا وبهذا، لا يؤمن ببعض ويكفر ببعض، فهؤلاء المشركون أرادوا أن يصدِّقوا بالوعد ويكذِّبوا بالوعيد، والحروريَّة والمعتزلة أرادوا أن يصدِّقوا بالوعيد دون الوعد، وكلاهما أخطأ.

والَّذي عليه أهل السُّنَّة والجماعة الإيمان بالوعد والوعيد»[40].

○ الحذر من تلبيس الشَّيطان: ويكون ذلك بما تقدَّم ذكره، وبتوثيق الصِّلة بالله وسؤاله الهداية والتَّوفيق، وبمعرفة مداخل الشَّيطان وسدِّها.

قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف]، ثم قال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 203].

فخلاصة القول أنَّ الغلوَّ في الدِّين من أسباب الهلاك، قال ﷺ: «هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ، قالها ثلاثًا»[41].

نسأل الله أن يعصمنا من الزَّلل ويجنِّبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن.

---

(32) والآيات قد يراد بها الكونيَّة أو الشَّرعيَّة.
(33) «مدارج السَّالكين» (73.72/1).
(34) «آثار ابن باديس» (154/5).
(35) «الشَّريعة» للآجُري (457.456/1)، وانظر: «السِّيَر» للذَّهبي (313/11).
(36) «مجموع الفتاوى» (141/20).
(37) «الأعمال الكاملة للعربي التبسِّي» (ص334).
(38) «مجالس التَّذكير» (320).
(39) «الاعتصام» (221/1).
(40) «مجموع الفتاوى» (270/8).
(41) «صحيح مسلم» (2670)، و«المُتَنَطِّعُونَ» المتعمِّقون الغالون المجاوزون الحدودَ في أقوالهم وأفعالهم.



كيفية الاشتراك..



يرجى إرسال طلب يتضمن الأمور التالية:

- الاسم واللقب.
- العنوان.
- الهاتف.
- الوظيفة.
- وصل الحوالة البريدية.

ترسل الحوالة البريدية باسم توفيق عمروني على الحساب البريدي الجاري:

ccp 4142776 clé 96

●●●

العنوان: دار الفضيلة للنشر والتوزيع

حي باحة (03)، رقم (28) الليدو. المحمدية. الجزائر

الأفراد: 900 دج - المؤسسات 1000 دج





واحة الإصلاح

إعداد: أسرة التحرير

علامة العالم وصفَتُه

سُئل عبدُ الله بنُ المبارَك: هل للعُلمَاء علَامةٌ يُعرَفُون بها؟ قَالَ: علامَةُ العالم مَن عملَ بعلمِه، واستَقَلَّ كَثيرَ العلم والعمل منْ نفسه، ورغبَ في علم غيره، وقبلَ الحَقَّ منْ كلِّ منْ أتاهُ به، وأخذَ العلمَ حيْثُ وَجَدَهُ، فهذه علامَةُ العَالم وصِفَتُهُ.

قالَ المَرُّوذِي: فذكرْتُ ذَلك لأبي عبدِ الله؛ قَالَ: هكذَا هُوَ.

[«إبطال الحيل» لابن بطَّة (ص 34)]

□□□

لا اتِّحادَ على البدع

قال الشَّيخ مبارك الميلي:

«وليست سعادتها - أي الأمَّة - إلَّا في حفظ الدِّيانة الإسلاميَّة وتطبيقها؛ أمَّا حشوها بالبدع الَّذي هو من طرق رفضها، فليسَ ممَّا يحسن السُّكوتُ عنه والتَّسامح فيه، إرضاءً للمبتدعين أصالةً أو تقليدًا؛ وإن لم يكُن طريقٌ إلى اتِّحاد الأمَّة - لا سمَحَ الله - إلَّا بالرِّضا عن البدع والاعتراف بحُقوق المبتَدعين في بدعهم فلا خيرَ في هذَا الاتِّحاد، ولا أُراه إلَّا اتِّحادًا على العبَث بالدِّيانَة».

[«آثار الشَّيخ مبارك الميلي» (1/169.168)]

□□□

وصيَّة عظيمة

قال عبدُ الله بنُ الإمام أحمد لأبيه يومًا: أوصِني يا أبَتِ؛ فقال:

«يا بُنَيَّ! انْوِ الخَيْر فإنَّكَ لا تَزال بخَير ما نَويتَ الخَير».

[«الآداب الشَّرعية» لابن مفلح (1/104)]

□□□

أنفع الدَّواء

قال الإمام ابن القيِّم:

«فأنفع الدَّوَاء أَن تُشغِل نَفسَك بالفكر فيمَا يَعْنيك دون مَا لا يَعْنيك، فالفكر فيمَا لا يعنِي بَاب كلِّ شَرٍّ، ومَن فكَّر فيمَا لَا يعنيه فاتَهُ مَا يعنيه، واشتَغل عَن أَنْفَع الأَشياء لهُ بمَا لا منفَعة لهُ فِيه».

[«الفوئد» (ص:255)]

□□□

كيفَ تكسِبُ ودَّ النَّاس

قال هَرِمُ بن حَيَّان:

«ما أقبلَ عبدٌ بقلبه إلى الله، إلَّا أقبَلَ اللهُ بقُلوب المُؤمنينَ إليه، حتَّى يَرزُقَه وُدَّهُم».

[«سير أعلام النُّبلاء» (4/49)]

□□□



درر من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ

«قَـد يكـونُ إخفـاءُ بعض الأمـور رحمةً لبعضِ النَّاسِ، والنِّزاع في الأحكام قَد يكونُ رحمةً إذَا لم يُفْضِ إلى شرٍّ عظيم من خَفَاء الحُكم».

[«مجموع الفتاوى» (159/14)]

□□□

«الأجرُ على قَدْر منفَعة العَمل ومصلَحته وفائدَته، وعلى قَدْر طاعة أمْر الله ورسُوله؛ فأيُّ العمَلَيْن كان أحسَنَ وصاحبُه أطوَعَ وأتبَعَ كان أفضَل، فإنَّ الأعمالَ لا تتفاضَل بالكَثرة، وإنَّما تَتَفاضَل بما يحصُل في القُلوب حالَ العَمل».

[«مجموع الفتاوى» (281/25)]

□□□

«ليس في الدُّنيا حَرَمٌ لا بيتُ المقدس ولا غيرَه إلَّا هذَان الحرَمَان - يعني مكَّة والمدينة -، ولا يُسمَّى غيرُهما حَرَمًا، كما يُسمِّي الجهَّالُ، فيقُولون: حَرَم المقدس، وحَرَم الخَليل؛ فإنَّ هذَيْن وغيرَهُما ليسَا بحَرَم باتِّفاق المسلمين».

[«مجموع الفتاوى» (117/26)]

□□□

«ولمَّا كَان في الصَّبْر من حَبْس النَّفس والخشُونة الَّتي تَلْحَقُ الظَّاهر والبَاطن منَ التَّعَب والنَّصَب والحرَارة مَا فيه؛ كانَ الجزَاءُ عليْه بالجنَّة الَّتي فيهَا السَّعَة والحَرير الَّذي فيه اللِّين والنُّعومَة والاتِّكاء الَّذي يتَضَمَّنُ الرَّاحةَ والظِّلالَ المنافيةَ للحَرِّ».

[«جامع الرَّسائل» (73/1، رشاد سالم)]

□□□

«ولمَّا كان الغناءُ والضَّربُ بالدُّفِّ والكفِّ من عمَل النِّساء كانَ السَّلفُ يُسَمُّون مَن يفعَلُ ذلكَ منَ الرِّجال مخنَّثًا، ويسَمُّون الرِّجالَ المغنِّين مخانيث، وهذَا مشهورٌ في كلامهم».

[«مجموع الفتاوى» (565/11)]

□□□

«من تَعبَّد بعبادَة ليسَت واجبَةً ولا مستَحبَّةً وهُو يعتَقدُها واجبَةً أو مستَحبَّةً فهُو ضَالٌّ مبتَدعٌ بدعةً سيِّئةً لا بدعَةً حسنَةً باتِّفاق أئمَّة الدِّين، فإنَّ الله لا يُعبَدُ إلَّا بما هُو واجبٌ أو مستَحبٌّ».

[«مجموع الفتاوى» (160/1)]

□□□



ردود قصيرة:

- للأخت الكريمة أمِّ عبد الرَّحمن - وفَّقها الله - جزيل الشُّكر على مراسلتها لنا، ومشاركتها بمقال عنونته بـ«كلُّ حزب بما لديهم فرحون» ممَّا ينبئ عن سلامة منهجها وأنَّه لا طريق للتَّغيير إلَّا طريق الأنبياء عليهم السَّلام، فبارك الله فيها.

- كما نسدي جميل الشُّكر للأخ الحبيب عبد الكريم بوخضرة - سدَّده الله - من مدينة قسنطينة على قصيدته الهائيَّة الَّتي بعنوان: «ندى الرُّوح»، يمدح فيها سيِّد المرسلين ﷺ، ومطلعها:

سألتُ القوافي ما الهوى ما مواسمُه
وهل بين أعطافي خوافٍ تقاسمه؟
إذا راح في الدَّهر الهزارُ فها أنا
أسائلُه.. إنَّ السُّؤال يساومه
على الورد والرَّيحان عن زهرة على
وناةٍ على دمع على من ينادمُه

وهي في أحد وعشرين بيتًا.

- وأمَّا الأخ الفاضل عبد القادر - وفَّقه الله - من بلدية بوسفر بمدينة وهران فقد بعث إلينا برسالة تفيض بمشاعر الحبِّ والودِّ لإخوانه القائمين على المجلَّة وكلِّ مَن كان على سبيلهم، كما أرفق ذلك بكلمة لأحد المشايخ رجاء نشرها، إلَّا أنَّنا نعتذر إليه لعدم توافقها مع شروط النَّشر في المجلَّة، فبارك الله فيه وجزاه الله عنَّا كلَّ خير.

- والشُّكر موصول إلى الأخ المكرَّم عزُّوز بن العربي - حفظه الله - من بلديَّة الضَّلعة بمدينة أمِّ البواقي على كلمته الَّتي فيها الشُّكر والعرفان لإخوانه القائمين على هذا المنبر الدَّعوي، ونحن بدورنا نسأل الله الكريم ربَّ العرش العظيم أن يثبِّتنا ويسدِّدَ خطانا، وأن يزيدنا من فضله.

- وقد أرسل إلينا أحدُ إخواننا النُّجباء من مدينة الجلفة وهو الأخ ناصر ساحة - حفظه الله - مقطوعة شعريَّة من بحر البسيط من ثلاثة أبيات، وطلب نشرها، فها هي:

لا تسألنَّ غيرَ الله في إِرَبٍ
واللهُ أوفى فضلُهُ ونُعماهُ
ولا تأمَل من سِواه منفعَةً
فالخيرُ منه وكلٌّ تحت رُحماهُ
فالفضلُ أُخَيَّا فضلُ خالقنا
والفضلُ أُخَيَّا مردُّه اللهُ

نسأل الله له مزيدا من التَّوفيق والسَّداد.

- كما أرسل إلينا الأخ الودود سمير برقرق - وفقه الله - من مدينة سطيف قصيدة من ثمانية أبيات، بعنوان «الحبُّ الأعظم» يقول في مطلعها:

مهما بعد الأحباب فَلي حبيب
لم أترك لغَيره في قَلبي مهيب
ولا أرى قد حشا شيء مثله
قلبي وزاده فسحة واتِّساع رهيب
نفيت به كلَّ شرك به ومودَّة
فنقى صَدري من كلِّ وحش كئيب

- ونشكر الأخ المفضال زين الدِّين بن عمر ضيف الله - سدَّده الله - من بلدية القيقبة بدائرة رأس العيون بمدينة باتنة على رسالته «رسالة شكر وامتنان» شحنها بعبارات فيها الكثير من الحبِّ والشُّكر والدُّعاء بمُواصلة ما نحنُ فيه، كما اقترح علينا اقتراحين، بارك الله فيه ونفع به.

- كما نقدِّم شكرنا الكثير للأخوين الكريمين مصطفى الطَّيِّب صيَّاد من منطقة طُولقَة ببسكرة، وياسين شرقي على مراسلتهما لنا عن طريق البريد الإلكتروني، وفَّقهما الله لكلِّ خير.